مفاهيم قرآنية

حول النعم في صورتها المادية وحقيقتها المعنوية

تأليف

الأستاذ الدكتور

طلعت محمد عفيفى

العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر

والوكيل العلمى للجمعيات الشرعية بجمهورية مصر العربية

(١) الحياة والموت

(٢) النور والظلمة

(٣) الربح والخسارة

(٤) الهداية والضلال

(٥) الصحة والمرض

(٦) العقل والجنون

(٧) البصر والعمى

(٨) السمع والصمم

(٩) الكلام والبكم

(١٠) العلوم والجهل

(١١) اللباس والعرى

(١٢) الغنى والفقر

(١٣) الطهارة والنجاسة

(١٤) الجمال والقبح

(١٥) القوة والضعف

(١٦) العزة والذلة

(١٧) الإصلاح والإفساد

(١٨) السعادة والشقاوة

(١٩) المتعة والحرمان

(٢٠) الحرية والفوضى

(٢١) الحضارة والتخلف

(٢٢) النجاح والإخفاق

مكتبة الإيمان

مفاهيم قرآنية
حول النعم في صورتها
المادية وحقيقتها المعنوية

تأليف:
الأستاذ الدكتور
طلعت محمد عفيفى
العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
جامعة الأزهر
والوكيل العلمى للجمعيات الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

مفاهيم قرآنية

حول النعم فى صورتها المادية وحقيقتها المعنوية

(١) الحياة والموت.
(٢) النور والظلمة.
(٣) الربح والخسارة.
(٤) الهداية والضلال
(٥) الصحة والمرض
(٦) العقل والجنون
(٧) البصر والعمى.
(٨) السمع والصمم.
(٩) الكلام والبكم.
(١٠) العلم والجهل.
(١١) اللباس والعرى.
(١٢) الغنى والفقر.
(١٣) الطهارة والنجاسة.
(١٤) الجمال والقبح.
(١٥) القوة والضعف.
(١٦) العزة والذلة.
(١٧) الإصلاح والإفساد.
(١٨) السعادة والشقاوة.
(١٩) المتعة والحرمان.
(٢٠) الحرية والفوضى.
(٢١) الحضارة والتخلف.
(٢٢) النجاح والإخفاق.

تأليف

الأستاذ الدكتور/ طلعت محمد عفيفى

العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر

والوكيل العلمى للجمعيات الشرعية بجمهورية مصر العربية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، شهادة نحيا بها ونموت عليها، ونلقى الله بها، وبعد..

١- لقد أنعم الله تعالى على عباده بنعم لا يحصيها عدٌّ، ومنحهم من الخيرات ما لا يحده حَدٌّ، وصدق الله القائل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤). والقائل أيضاً: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣).

وبقليل من التأمل يدرك الإنسان منا هذه الحقيقة، فهو من مهده إلى لحده، ومن مفرق رأسه إلى أخمص قدمه مغمور بنعم من الله تعالى عليه فى نفسه وفيما حوله، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

وقد استرعت كثرة هذه النعم نظر سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم، وجاء قول أحدهم معبّراً عن هذا، وذلك فى قوله: "ما خرجت من بيتى فوقع نظرى على شيء إلا ورأيت لله علىَّ فيه نعمة، ولى فيه عبرة".

٢- ومع ما ذكره القرآن الكريم من حديث مستفيض عن هذه النعم التى يسّرت للإنسان حياته المادية فإنه يدعوه إلى عدم الركون إليها، والانشغال بها عن الغاية التى لأجلها خُلق، فإن النعم حينئذٍ تفقد قيمتها، وتصبح فى حق أصحابها شكلاً بلا مضمون، وجسداً بلا روح.

ومن هذا القبيل نقرأ قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

ونقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠-١١). والآيات فى هذا المعنى كثيرة، وهى لا تنصبُّ على نفى النعمة بمعناها المادى، فقد يكون الشخص المذموم أوفر حظاً من غيره فيها، ولكنها تنصبُّ على عدم الانتفاع بها بصورة تجعل صاحبها أكثر صلة بربه، وأوفر حظاً من طاعته، فتصبح النعمة فى حق صاحبها كالعدم.

٣- وقد يَسّر الله لى- بفضله وتوفيقه- أن أعيش مع دراسة قرآنية للنعم وأضدادها فى صورتها المادية وحقيقتها المعنوية، فتحصّل لى من ذلك قدر يربوا على العشرين موضوعاً.

ويسعدنى أن أقدم خلاصة هذه الدراسة مستهدياً فيما كتبت بهدى القرآن الكريم، وما يخدم الموضوع من أحاديث نبوية وغيرها.

ولطبيعة الدراسة اكتفيت بالإشارة إلى عنوان الموضوع، وما

يندرج تحته من توصيف للجانب المادى فى كل نعمة من النعم، وأتبعه ببيان حقيقة النعمة، وصولاً إلى الاستفادة المطلوبة منها دون اللجوء إلى تقسيم الدراسة إلى أبواب وفصول... إلخ.

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك فى هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزى عنى والدىَّ وأساتذتى خير ما يجزى به عباده الصالحين، وأن يجعله ثقلاً لى ولهم فى موازين الحسنات.

إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

أ.د / طلعت محمد عفيفى سالم

الحياة والموت

١- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥) تدلنا هذه الآيات الكريمات - وأمثالها في القرآن الكريم - على أن الله تعالى حي في ذاته، وأنه واهب الحياة لغيره، فهو سبحانه الحي وهو المحيي وهو المميت.

٢- والحياة - في جانب منها - تعني النمو والحركة وسائر مظاهر الكائن الحي، وهي بهذا المعنى قدر مشترك بين الإنسان وغيره من الكائنات..

ففي شأن الإنسان يقول رب العزة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. وفي شأن النبات يقول ربنا: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (يس: ٣٣). وقال في شأن سائر الكائنات: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

٣- فإذا عرفنا أن الحياة في صورتها المادية قدر مشترك بين كل الكائنات، وأنها في عالم الإنسان لا يختص بها إنسان دون آخر- فهي للكافر والمؤمن، وللطائع والعاصي دون تفضيل- إذا عرفنا ذلك تبين لنا أن الحياة بهذا المعنى لا تمثل قيمة يثاب عليها الإنسان أو يعاقب، لأن الإنسان في الأصل لا دخل له في

هبة هذه الحياة لنفسه أو لغيره أو سلبها، وإنما مردُّ استمرار هذه الحياة أو قطعها يتصرف فيه الخالق وحده، فهو المحيى وهوالمميت، سبحانه لا شريك له.

٤- ومن هنا فإن القرآن الكريم يحدثنا عن الحياة من منظور آخر، متى تحقق فإن صاحبه يوصف بالحياة، وإن تخلى عنه فهو ميت، وإن اخترع وابتكر وحلَّق فى افاق السماء، وغاص تحت الماء.. إن الحياة الحقيقية - كما يصوِّرها القرآن الكريم - هى ما كانت فى طاعة الله، والتزم أصحابها شريعة الله، وتمسك أفرادها بهدى رسول الله ﷺ. يقول رب العزة: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٢). ويقول تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤) فكأننا بنصِّ هذه الآيات أموات، ولن نحيا إلا إذا طبقنا تعاليم الإسلام على النحو الذى أراد الله وفق ما جاء فى كتابه وسنة رسوله.

يقول الأستاذ سيد قطب فى كتابه الظلال فى تعليقه على كون الإسلام دعوة إلى الحياة: "إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معانى الحياة. إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيى القلوب والعقول، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات. ويدعوهم إلى شريعة من عند الله، تعلن تحرر

الإنسان وتكريمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفًا متساوين فى مواجهتها، لا يتحكم فرد فى شعب، ولا طبقة فى أمة، ولا جنس فى جنس، ولا قوم فى قوم، ولكنهم ينطلقون كلهم أحرارًا متساوين، فى ظل شريعة صاحبها الله رب العباد.

ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور، يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة التى وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق، هذه الضوابط التى تصون طاقة الإنسان من التبدد، بحيث لا تحطمها ولا تكبتها، وإنما تدفعها إلى النشاط البنَّاء. ويدعوهم إلى القوة والعزة والثقة بدينهم وبربهم، والانطلاق نحو تحرير الإنسان من عبوديته للعباد إلى عبادة رب العباد.

٥ - إن الذين يعيشون بهذه القيم، ويعملون بهذا القرآن هم الأحياء حقًا، وهم الذين تنزل على قلوبهم آيات القرآن الكريم، فإذا بها كالأرض الجدباء أصابها الماء فاهتزت وربت. يقول رب العزة: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس: ٦٩، ٧٠).. وهؤلاء المؤمنون بالقرآن والسائرون على منهاجه حين ياتيهم الموت لا يعتبرون أمواتًا، ولكنهم نُقِلُوا فقط من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الغرور إلى دار الخلود.

يقول رب العزة: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤) وقال: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩). وقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج: ٥٨، ٥٩). وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧). إلى غير ذلك من الآيات الكريمات التى تؤكد على أن أصحاب هذه المبادئ لم يموتوا، وإنما الميت هو الإنسان الذى يعيش فى هذه الحياة مقطوع الصلة بالله، ليس له هدف، ولا يؤدى رسالة، وإن عاش بين الناس بجسده.. وصدق من قال:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبًا ... كاسفًا باله قليل الرجاء

٦- إن القران الكريم يحدثنا عن أهل الكفر، الذين جعلوا همهم ملء بطونهم، وترف معيشتهم دون شىء آخر، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد: ١٢). ويقول عز من قائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤). فسمَّى ما فيه الكفار معيشة ولم يسمِّها حياة، وبيَّن فى الآيات الكريمات سوء مصيرهم ومنقلبهم، وأكدّ فى آية أخرى على أن ما هم فيه من نعيم إنما هو ظاهر فقط، أما حقيقة الأمر فإنهم بهذا النعيم معذبون، وفى هذا يقول ربنا: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥).

٧- ونختتم بهذه الكلمات التى قالها أحد الدعاة المعاصرين، وهى تُجمل ما فصلناه سابقًا، يقول: "للموت ثلاثة منازل: موتة الأحياء، وموتة الفناء، وموتة البقاء. فموتة الأحياء هى أن يعيش الإنسان حيًا كميت، وموجودًا كمفقود، وموتة الفناء هى موتة الدواب والناس الطبيعية، يفنى بفنائهم ذكرهم، وموتة البقاء هى موتة رجال العقيدة وحماة الدعوة، فإنه لن يموت رجل الحق ما عاش الحق، ولن يفنى داعى الله ما دام الله"..

النور والظلمة

١- يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥).

وينقسم النور الذى يمدنا به الله سبحانه وتعالى إلى قسمين:

أ - نور مادى.

ب - نور معنوى.

فأما النور المادى فيتمثل فيما يسَّره الله لنا من أسباب تستنير بها حياتنا من شمس وقمر ونجوم، كما يتمثل فيما يسره ربنا من إمكانات نتغلب بها على الظلام إذا جاء الليل من مصابيح وسُرُج تستخدم فيها مصادر الطاقة من وقود وكهرباء نحصل عليها من طاقة المياه أو الرياح أو غير ذلك.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الأسباب التى ينبعث منها النور المادى فى نحو قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ (الفرقان: ٦١). وقال تعالي: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠).

وفى معرض التفضل والامتنان بهذا النور المادى يقول رب العزة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص: ٧١). لكن هذا النور المادى لا يخص الله به قومًا دون آخرين، وإنما هو حق لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم.

٢- وأما القسم الثانى وهو النور المعنوى: فإن الله تبارك وتعالى لا ييسره إلا لأهل طاعته، ولا يمنحه إلا لأهل محبته. يقول رب العزة: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ (الحديد: ٢٨) وقال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢). وبواسطة هذا النور الإلهى يمضى الإنسان فى حياته وفق هداية ليس فيها ضلال، ومعونة من الله ليس فيها إهمال؛ فى حين أن الحرمان من هذا النور يجعل صاحبه يتخبط ويمضى فى حياته على غير هدي، ولا ينفعه ما يعيش فيه من نعيم مادى. يقول رب العزة: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (الزمر: ٢٢).

٣- ولكى يصل الإنسان إلى هذا النور لابد له من أدوات للحصول عليه، وأولها الاتصال بين العبد وبين مصدر هذا النور، وهو الله رب العالمين، وثانيها العمل بالمنهج الذى يوصله إلى هذا النور وهو القرآن الكريم، وثالثها التعلق بالبيئة التى يوجد فيها هذا النور.

أما عن مصدر هذا النور فهو الله رب العالمين دون سواه، كما

قال ربنا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، ويؤكد لنا ربنا فى كتابه أن الدنيا كلها لو اجتمعت فلن تقدر على أن تعطى للعبد ذرة من هذا النور، فيقول ربنا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠)، وأما عن المنهج المتضمن لهذا النور فهو القرآن الذى ورد وصفه فى كتاب الله تعالى فى العديد من الآيات بأنه النور، وفيه على سبيل المثال ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (النساء: ١٧٤)، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦) وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (التغابن: ٨) وغير ذلك من الآيات كثير.

وأما عن البيئة التى يوجد فيها النور، فمنها المساجد، التى ورد الحديث عنها فى سياق الحديث عن نور الله تعالى فى السورة المسماة بسورة النور، حيث يقول رب العزة ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (النور: ٣٥-٣٦).

وفى الحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى وغيرهما "بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة".. ومن هذه البيئات التى يوجد فيها النور مجالس العلماء، كما يقول الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه: "الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء". وهكذا فى كل مجالس الخير والطاعة التى يتعاون فيها أصحابها على مرضاة الله تعالى ومحبته.

٤- وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن آثار هذا النور فى حياة من وهبهم إياه.فبين لنا أن التوفيق الدائم يصاحب أهل هذا النور، حيث يقول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ (الحديد: ٢٨). وبين لنا أن منقلب هؤلاء يوم القيامة إلى نور، فقال: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ (التحريم: ٨)، وينعكس هذا النور على قلوب أصحابه ووجوههم فى الدنيا، فتنشرح به صدورهم، وتضاء به وجوههم، وفى هذا يقول الصحابى الجليل عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما: "إن للحسنة ضياء فى الوجه، ونوراً فى القلب، وسعة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الخلق".

٥- ولئن كانت هناك عوامل تساعد على اكتساب هذا النور، فإن ثمة أسبابًا تحرم الإنسان من هذا الخير، وتحول فيما بينه وبين الوصول إليه.

وأول هذه الأسباب الكفر بالله تعالى، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

ومنها المعصية، كما يقول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما فى سياق كلامه السابق ذكره: "وإن للمعصية سوادًا فى الوجه، وظلمة فى القلب، وضيقًا فى الرزق، وبغضًا فى قلوب الخلق".

٦- إن لهذا النور أهميته فى حياة المسلم، ولنا أن نتصور الإنسان إذا انقطع النور المادى عن منزله أو حجرته أو شارعه،

فإذا به يتخبط فى الحوائط، ويتعثر فى الأشياء، وتضطرب كل أحواله، ولا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار حتى يضاء المكان، وتتبدد الظلمة، وهكذا حال الإنسان إذا حُرِم من نور الله تعالى، فإذا به يتخبط، ويظل حائرًا حتى يهتدى إلى صراط الله المستقيم.

لأجل ذلك كان النبى ﷺ يسأل ربه أن يهبه نوراً فى جميع أعضائه وفى كل جهاته، فكان يقول- كما فى الصحيحين-: "اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى بصرى نورا، وفى سمعى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن يسارى نوراً، وفوقى نوراً، وتحتى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفى نوراً، واجعل لى نوراً".

ومن دعائه أيضاً- ﷺ-: "اللهم اجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى.... الخ".

فاللهم اهدنا إلى نورك الذى أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

الربح والخسارة

١- جُبل الإنسان فى طبيعته على حب الكسب وكراهية الخسارة والفشل، ومن ثمَّ فإنه لا يقدم على مشروع ما، إلا وهو يتوقع تحقيق النجاح فيه، ويعمد - لتحقيق هذا النجاح - إلى دراسة الموضوع دراسة وافية، واستشارة من سبقوه فى هذا الطريق، وربما يحيل هذه الدراسة إلى بعض بيوت الخبرة لتقوم بدراسة الجدوى اللازمة، ضمانًا لسلامة المشروع من احتمالات الفشل والخسارة.

ومع كل هذه الاحتياطات قد يفشل المشروع، وتضيع جميع الجهود.. ولكن يبقى أن نذكّر بأن تحقيق الربح فى مشروعات الدنيا أو عدمه ليس دليلاً على رضا الله تعالى عمّن يربح، أو غضبه على من يخسر، وأن الإخفاق فى هذه المشروعات يمكن تداركه، وأن يعوّض الإنسان ما فاته فى مشاريع أخرى.

٢- لكنَّ الله تبارك وتعالى يحدثنا عن مشاريع أخرى، النجاح فيها طريق إلى النعيم، والفشل فيها طريق إلى الجحيم، والذى يحدد النجاح فيها أو الفشل هو موضوع التجارة التى يباشرها العبد، وفى هذا يقول النبى المصطفى ﷺ: "كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها" رواه مسلم وغيره.

فمن باع نفسه وما يملك لله رب العالمين فهو الرابح، ومن باع نفسه لغير الله فهى الخسارة الماحقة، وفيما يلى بيان ذلك من

خلال ما ذكر الله تعالى فى كتابه.

٣- يحدثنا ربنا تبارك وتعالى عن أن التجارة معه لا يلحقها بوار ولا يتوقع فيها خسارة فيقول رب العزة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٢٩، ٣٠).

وفى موضع آخر من كتاب الله تعالى يحدثنا ربنا تبارك وتعالى عن هذه التجارة، والثمن الذى يدفع فيها أو الجزاء المستحق عليها فى الدنيا والآخرة، فيقورل ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف: ١٠-١٣).

وفى موضع ثالث من كتاب الله تعالى يذكرنا ربنا بهذه التجارة، وأن من سلك سبيلها وسار فى طريقها فهو الفائز حقًا، وأن ما وعد الله به أصحاب هذه التجارة من عظيم المثوبة وعد صادق لا يتخلف. وفى هذا يقول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١).

٤- وقد ورد فى السنة النبوية المطهرة من المواقف ما يشهد لفقه الصحابة رضوان الله عليهم لهذا المعنى. فحين بايع الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة، قالوا له: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال ﷺ: "أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". قالوا: فمالنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة". فقالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل.

وحين هاجر الصحابى الجليل صهيب بن سنان الرومى رضى الله عنه وحال المشركون فيما بينه وبين هجرته، وقالوا: جئتنا صعلوكًا لا مال لك، وتريد الآن أن تهاجر بمالك؟! ففاوضهم على أن يترك لهم ماله وَيَدَعُوهُ، فوافقوا. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى.

وهذا الفقه نفسه هو الذى دفع سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه - وقد حضرت تجارة له إلى المدينة - فجاءه التجار ليساوموه عليها، فقال: بكم تأخذونها؟ فقالوا: نعطيك على الدرهم درهمين، فقال: هناك من يعطى أكثر. فقالوا: نعطيك على الدرهم ثلاثة. فقال: هناك من يعطى أكثر، فمازالوا يزيدونه، وهو يقول لهم: هناك من يعطى أكثر. فقالوا له: ليس فى المدينة تجار غيرنا. فقال: إن الله وعدنى على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. أشهدكم أنها جميعًا فى سبيل الله، وقام بتوزيعها على الفقراء والمساكين.

ويترجم هذا الفقه الإمام جعفر الصادق فى أبيات له يقول فيها:

أَتَامنُ بالنفس النفيسة ربها

فليس لها - فى الخلق كلهمُ - ثمن

بها تُشترى الجنات؛ إن أنابعتها

بشيء سواها، إن ذلكم غبن

إن بعت نفسى بدنيا أصبتها

لقد ضاعت نفسى وقد ضاع الثمن

٥- فإذا انتقلنا من هذه الصور المشرقة والمضيئة للتجارة الرابحة، فسنجد القرآن الكريم يحدثنا عن أنواع أخرى من التجارات مآلها الخسران، وعاقبتها البوار، وهى كل معاملة سلك بها أصحابها مسلك البعد عن الله، وأعلنوا العصيان والتمرد على شرع الله.

يقول ربنا فى شأن المنافقين: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٦).

ويقول رب العزة فى شأن اليهود: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٨٦).

ويقول فى شأن المشركين: ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ٩).

والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

٦- ونستنتج من المقابلة بين الصورتين أن الراغب فى ثواب الله وعظيم جزائه لابد وأن يعطى من نفسه المجهود، ولا يبخل بمال الله على عباد الله، ولن ينفع الإنسان أن يتمنى على الله

الأمانى دون عمل، وقد قال الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه: "ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وإن قومًا غرتهم أمانيُّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا: نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل".

ونختم بهذا الحديث الذى رواه الإمام الترمذى بسنده وحسَّنه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة".

فاللهم ارزقنا الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل.

الهـدايـة والضـلال

١- يحدثنا القرآن الكريم كثيراً عن الهدى والضلال، حتى إن مفردات كلمة (هدى) وما اشتق منها جاء ذكرها فى القرآن الكريم قرابة مائتى مرة، وقريب من ذلك لفظة (ضلّ) وما اشتق منها، مما يدل على ثراء الموضوع واهتمام القرآن الكريم به.

٢- وحين نتأمل فى مدلول كلمة (هدى)، نجد أنها جاءت فى القرآن الكريم على معنى تيسير الله تعالى للمخلوقات أمر معاشها، وتدبيره لأمورها، بحيث تمضى الحياة لكل الكائنات - رغم كثرتها وتنوعها - بلا تضارب ولا تعارض، وإنما لكل مخلوق هدفه، ولكل وسيلته التى تيسر له هذا الهدف.

وبهداية الله للإنسان فى هذا الجانب ينطلق فى أرجاء الحياة، يبنى ويعمر، ويخترع ويبتكر، ويحصل على حاجات جسده من مطعم ومشرب، وملبس ومسكن، وغير ذلك من الضروريات أو الكماليات أو التحسينيات.

وفي الدلالة على هذا النوع من الهدى يقول رب العزة: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٤٩-٥٠).

وقال سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى: ١-٣).

٣- لكن الإنسان ليس جسداً فقط، وليس مادة فحسب، وإنما

هو كيان مؤلف من جسد وروح، وسرّ تفوقه على سائر الكائنات لا يعود إلى كيانه المادى، وإنما إلى عنصر الروح، وصدق من قال:

ياخادم الجسم كم تشقى لخدمته

أتطلب الربح مما فيه خسرانُ

أقبل على الروح واستكمل فضائلها

فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

فإذا اقتصر الإنسان على اهتمامات جسده، وقصر همته على المطعم والمشرب دون غيره، فإنه بذلك يحط من قدره،ويصبح أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد: ١٢).

٤- ومن هنا كانت هداية الله تعالى للإنسان فى الجانب الروحى أقوى وأبرز منها فى الجانب المادى، فأنزل الله - لأجل هذه الهداية - الكتب، وأرسل الرسل، وأوصى على ألسنة الدعاة من المرسلين وأتباعهم بالعمل للآخرة، والسعى لمرضاة الله تعالى، وحذر من الفتنة بالدنيا والركون إليها.

ويبدو هذا الاهتمام- واضحا- من المقارنة بين الآيات التى تحدثت عن الهداية بمعناها المادى، حيث لا تتجاوز بضع آيات، فى حين أن الهداية فى جانبها الروحى تصل إلى قرابة مائتى آية، وأن الهداية الحقيقية هى فى معرفة الإنسان لربه، واتباعه لمنهجه، واقتفائه أثر نبيه، وأن الضلالة هى فى مخالفة ذلك، والإعراض عنه.

يقول تعالى على لسان نبيه إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات: ٩٩) وفي آية أخرى: ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧). وقال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (النور: ٥٤).

٥- ولأهمية الهداية - بهذا المعنى الثاني - كانت وصية الله لعباده ورسول الله ﷺ لأمته أن يسألوا ربهم التوفيق لها، والسير على نهجها.

ففي سورة الفاتحة - التي هي أم القرآن وأعظم سورة والسبع المثاني - أمرنا أن ندعو الله فيها قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وفي الحديث الذي أخرجه مسلم- بسنده- عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله ﷺ: "قل اللهم اهدني وسددني".

٦- وفي الوقت نفسه يوقفنا ربنا على الأسباب التي بها نحصل الهداية لنسلكها، والأسباب المانعة من الحصول عليها لنتجنبها.

ففي أسباب الحصول على الهداية نختار هذه الآيات:

يقول رب العزة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٤). ويقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦). ويقول: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران) وغير ذلك كثير.

وفي الأسباب المانعة من الحصول عليها نختار هذه الآيات.

يقول رب العزة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣) ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٤). ويقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠) وغير ذلك من الآيات كثير.

٧- إن من يريد الوصول إلى مقصدٍ ما لابد له من دليل يدلّه، وخريطة يمشى على ضوئها، وأفراد سبقوه على هذا الطريق حتى لا يضل ولا يزل.

ودليل المؤمن هو رب العزة الذى يملك مفاتيح هذه الهداية، والذى قال عن نفسه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ (الكهف: ١٧).

وأما الخريطة التى يمشى المرء على ضوئها ليصل إلى مقصده فهى القرآن الكريم، الذى قال الله عنه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

وأما الأفراد الذين سبقونا على هذا الطريق فهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كما قال ربنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة٦،٧)..

ويأتى على رأس هؤلاء جميعا رسولنا ﷺ الذى قال الله فى حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢). كما أن نموذج أصحابه الأطهار الأبرار نموذج يحتذى فى تحقيق هذه الهداية، كما قال رب العزة: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا﴾ (البقرة: ١٣٧).

٨- وبقدر ما يحتاج الإنسان إلى من سبق ليأخذوا بيده إلى الهدى فإنه فى حاجة إلى تجنب من يصدونه عنه، ومن ذلك الشيطان الذى قال الله فى حقه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٢). وكذلك قرناء السوء ودعاة الشر، الذين قال الله عنهم: ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٧١) وكذلك مناهج الضلال التى تنأى بأصحابها عن منهج القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤).

٩- إن الهداية هى السبيل الوحيد لسعادة المرء فى دنياه وأخراه، بأن يشرح الله صدر صاحبها ويملأ جوانحه أمنا وسلاما، فى حين أن الضلالة تنعكس بآثارها السلبية على أصحابها، فتنقلب حياتهم شقاء وتعاسة.

يقول رب العزة: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلام وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

فليحرص المسلم على أن يلتمس من ربه هداه، وذلك حتى يصل إلى غايته ومنتهاه، ويسعد بطاعة خالقه فى دنياه ويوم يلقاه.

الصحة والمرض

١- من نعم الله العظيمة، ومننه الجليلة التى أنعم بها على عباده: نعمة الصحة فى الأجسام والعافية فى الأبدان، وفى الحديث الذى رواه الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ". والمغبون هو المخدوع الخاسر، الذى لم يقدر النعمة قدرها، وفى قوله ﷺ: "كثير من الناس" ما يشير إلى أن الذى يعرف قيمة الصحة والوقت أفراد قليلون.

وفى الدلالة على عظم نعمة الصحة مع نعم أخرى غيرها جاء فى الحديث الذى أخرجه الترمذى وحسنه وأخرجه ابن ماجه- أيضا- عن مسلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أصبح منكم آمناً فى سربه، معافى فى جسده،عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا" أى: صارت له الدنيا بأكملها.

٢- ونعمة الصحة ليست مجرد أداة لتحصيل المتع الدنيوية واللذات الجسدية أو النفسية، وإنما هى وسيلة يستعين الإنسان بها على طاعة ربه، ويدرك سر وجوده وغاية خلقه.

ويتضح هذا المعنى من خلال ربط القرآن الكريم والسنة النبوية بين تفضل الله تعالى علينا بهذه النعم، وضرورة أن يستخدمها المرء فى طاعة خالقه.

يقول رب العزة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨). وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ٨-١٠). ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته فيحمل عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة". والسلامى: واحد السلاميات وهو المفصل من جسم الإنسان، وعددها كما جاء فى بعض الروايات ثلاثمائة وستون مفصلا، على كل مفصل منها صدقة.

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن أبى برزة الأسلمى وقال عنه: حسن صحيح: قال رسول الله ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيم أبلاه".

٣- فإذا حدث أن إنساناً وهبه الله نعمة الصحة فطغى بها وبغى، وألهته النعمة عن المنعم، صارت فى حكم العدم، وأصبح وجودها المادى ضرره أكثر من نفعه، وهذا ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم.

٤- وفى ضوء هذا المفهوم القرآنى نجد أننا أمام عدة أصناف من البشر إزاء نعمة الصحة فى الأجسام، والعافية فى الأبدان،

وذلك على النحو التالى.

الصنف الأول: أنعم الله عليه بنعمة العافية، فاستثمرها فى طاعة الله تعالي، وانطلق فى أرض الله ينصر المظلوم، ويعين الضعيف، ولا يدع باباً من أبواب الخير إلا ويلجه، فاستعان بقوته على طاعة خالقه، وكان لربه شاكراً، ولفضله ذاكراً.

الصنف الثانى: ابتلاه الله تعالى ببعض الأمراض أو العاهات، لكن قلبه بالله موصول، يؤدى الواجبات بقدر طاقته ويجتنب المعاصى والمحرمات.

وهذا الصنف يرفع الله عنه الحرج فيما يعجز عن القيام به بسبب عاهته أو مرضه. يقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ (الفتح: ١٧).

ويقول عز من قائل: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٩١). ويقول سبحانه: ﴿لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ (النساء: ٩٥) وتعلمنا السنة النبوية أن صبر هؤلاء على مرضهم وابتلاءاتهم تُرفع به درجاتهم، وتحط بسببه خطيئاتهم،ففى الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: "ما يصيب المسلم من نصب (أى تعب) ولا وصب (أى مرض) ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولاغم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه".

كما تعلمنا السنة - أيضا - أن هؤلاء المرضى تكتب أجورهم

كالأصحاء سواء بسواء، ويُعاملون بنياتهم، ففى الحديث الذى أورده البخارى فى صحيحه عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً". وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال: "كنا مع النبى ﷺ فى غزاة، فقال: "إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض".

الصنف الثالث: أنعم الله عليهم بنعمة العافية، فإذا بهم يعطلونها عن وظيفتها، ويخرجون بها عن إطارها، ويستخدمونها فى غير ما خلقت له.

فهؤلاء - وإن كانوا أصحاء الأجساد - يعتبرهم القرآن الكريم مرضى القلوب، وهذا هو المرض الحقيقى وليس مرض الأجساد.

فالمنافقون الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (المنافقون: ٤) قال عنهم فى آية أخرى: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة: ١٠).

ويحدثنا ربنا عن الآثار المدمرة لهذا النوع من المرض فى أكثر من آية من كتاب الله تعالى.

فهو الذى يحول بين الإنسان وبين الانتفاع بالقرآن، حيث يقول ربنا فى شأن آياته: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٥).

وهو الذى يجعل أصحابه يوالون أعداء الله تعالى من اليهود والنصارى وغيرهم، ويبيعون دينهم فى سبيل دنياهم، فيقول

ربنا: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة: ٥٢).

وهو الذى يجعل صاحبه خائر العزيمة، مستسلما للهزيمة حين يشتد البأس، مكذبا بوعد الله لنبيه حين يرى تجمع الأعداء كما كان فى غزوة الأحزاب، كما قال ربنا: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (الأحزاب: ١٢).

إلى غير ذلك من المواقف التى حدثنا عنها ربنا فى كتابه العزيز.

٥- ونستخلص من هذا أن سلامة الأبدان وقوة الأجسام ليست محلا لنظر الله تعالي، وإنما نظر الله تعالى إلى القلوب، وفى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم" وفى رواية له أيضا: "ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

فإذا صحَّت الأجسام، ومرضت القلوب، فهذا هو الشر الماحق، والداء العضال.

روى أن أناسا جاءوا إلى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، وكانوا يتمتعون بصحة وعافية، فتعجب الناس من ذلك، فقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسماً وأمرضهم قلبا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضهم جسماً. وأيم الله لو

مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجُعَلان والجعلان نوع من الحشرات كالخنفساء.

٦- فى حين أن مرض الأجسام لا يحول فيما بين صاحبه وبين الرقىّ إلى أعلى الدرجات، وإذا انتهت الدنيا ولقى الإنسان ربه ودّع الدنيا بآلامها وأسقامها، ولقى الله تعالى أصحّ ما يكون.

أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى قتادة رضى الله عنه قال: "أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت فى سبيل الله حتى أقتل أمشى برجلى هذه صحيحة فى الجنة، وكانت رجله عرجاء. فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقتل يوم أحد، هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال: كأنى أنظر إليك تمشى برجلك هذه صحيحة فى الجنة".

فليحرص المسلم على صحة إيمانه كما يحرص على صحة جسده، وليبادر إلى معالجة ما يصيب قلبه من أذى أو سوء، كما يفعل ذلك إذا ألمّ به مرض، أو لحقت به آفة، فإن الأجساد مآلها إلى الفناء، ولن يؤنس الإنسان يوم وحدته، ويضىء له يوم ظلمته إلا سلامة قلبه، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩).

العقل والجنـــون

لقد أنعم الله علينا بنعم لا يحصيها عدٌ، ومنحنا من الخيرات مـا لا يحـده حد، وتـأتى نعـمـة العـقل فى قمـة هذه النعم؛ فلولا العقل لاختلت أمورنا، واضطربت أحوالنا، وتعاطينا من الأفعال والتصرفات ما تستقبحه النفوس، وتزدريه العقول.

يقول الإمـام أبو الحـسن البـصـرى فى كـتـابه (أدب الدنيـا والدين): "إعلم أن لكل فـضـيلةٍ أسًا، ولكل أدب ينبـوعـاً، وأسُ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذى جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيـا عمـادًا، فأوجب التكليف بكمـاله، وجـعل الدنيـا مدبَّرة بأحكامه".

ويقول الشاعر:.

وأفضـــل قَسْـــمِ الله للمـــرء عقلُـــهُ
فليـــس من الأشياء شـىء يقـارِبـــــه
إذا أكمـل الرحمـــن للمـــرء عقلَـه
فـقـــد كـمـلـــت أخلاقُـــه ومـآربــــه

ومما أثر عن نبى الله سليمـان عليه السلام قوله: "مـا ارتدى العـبد رداء أفضـل وأجمل من رداء العـقل؛ إن انكسر جبره، وإن ذلَّ أعزه، وإن اعوجَّ أقامـه، وإن عثر رفعـه، وإن افتقر أغناه، وإن انكشف ستره".

ولئن كانت للعقل وظائفه التى ترقى به إلى هذا المستوى فإن أهم وظائفه وأعلاها قدراً أن يستدل الإنسان به على خالقه، ويلتزم بما يأمره به، وينتهى عما ينهاه عنه. سُئِلَ أحد الحكماء: أى منافع العقل أعظم؟ قال: اجتناب الذنوب.

وسئل آخر عن العقل، متى يعرف؟، قال: إذا نهاك عقلك عما لا ينبغى فأنت عاقل.

وفى ضوء هذا المعنى نجد أن لفظ العقل ومشتقاته ورد فى القرآن الكريم ٤٩مرة، ولم يرد الله فى أىٍّ منها العقل بمعناه المادى أو الحسى، وإنما أراد به ما يدل صاحبه على الهدى، ويرده عن الردى؛ وفيما يلى بعض الأمثلة:

يقول رب العزة: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢). وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٤).

وقد يستعمل القرآن الكريم لفظة (اللب) ومعناها: ما ذكا من العقل، ويستخدمها للدلالة على نفس المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠). إلى غير ذلك من الآيات الكريمات، التى تعلمنا أن العقلاء حقاً هم الذين عرفوا ربهم، وسلكوا سبيله، واهتدوا بهديه، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته.

يقول أحد الصالحين: "ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى"؛ فى الوقت نفسه ينعى القرآن الكريم على من عطلوا عقولهم عن تلك الوظيفة، وانطلقوا يهيمون فى هذه الدنيا بلا هداية ربانية، أو توجيهات إلهية، فينفى عنهم العقل، وينزل بهم عن رتبة الآدميين، وفيما يلى بعض الأمثلة:

يقول رب العزة: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤).

ويقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

ويقول تعالى فيما يقرُّ به الكفار ويعترفون يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠).. إلى غير ذلك من الآيات الكريمات.

وقد استنبط سلف الأمة الصالح من هذه الإشارات القرآنية الدلالة الحقيقية للعقل والجنون، فلم ينظروا إلى الجانب العقلى إلا من زاوية التكليف من عدمه، فمن وهبه الله العقل والتمييز فهو مكلف شرعاً، ومحاسب على ما يقوم به، فإن ابتلى بفقدان العقل والتمييز فقد رفع القلم عنه.

فإذا وهب الله الإنسان عقلاً مميزاً، ثم سار فى طريق الضلال، وسلك سبيل الغواية، فهذا فى ضوء ما ذكرنا من أدلة، وفى نظر السلف الصالح هو المجنون حقاً، وإن غاص تحت

الماء، وطار فى الهواء، واخترع وابتكر.

سئل الإمام سفيان الثورى رضى الله عنه: من المجنون؟ قال: من لم يميز رشده من غيه.

وسئل خلف بن أيوب عن المجنون. فقال: من عمل لدنياه، ووافق هواه، وآثر على ربه سواه. ومرّ صلة بن أشيم بقوم قد اجتمعوا على رجل مقيد. فقال: من هذا؟ قالوا: مجنون. فقال: لا تقولوا مثل هذا، وإنما المجنون مثلى ومثلكم، يعمّر الدنيا، ويخرّب الآخرة.

وقيل لأحد السلف: من المجنون؟ قال: من لم يبال ما نقص من دينه بعد أن سلمت له دنياه، ومن خرّب آخرته بإصلاحه لدنيا غيره.

إن الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم يقول: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فالرجس، ومعناه - كما قال الزجاج- اللعنة فى الدنيا والآخرة، هو الجزاء الذى يجعله الله لمن آثر الكفر على الإيمان.

وهذا الجزاء نفسه - أى الرجس - جعله الله تعالى عقوبة لمن عطلوا عقولهم عن وظيفتها، وساروا بها على غير هدى.

يقول رب العزة: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٠٠).

وبالنظر فى مجموع الآيتين معا يتضح لنا أن الذين لا

يؤمنـون هم الذين لا يعقلون، وأن اللعنـة فى الدنيـا والآخـرة هى العقوبة المقررة لمن ألغى عقـله ووافق هواه، وآثر على ربه سـواه.

فليحرص المرء على استثمار عقله فيما يعود عليه بالنفع العاجل فى الدنيا والآجل فى الآخرة، وليحـذر أن يسوقه هواه إلى مخالفة مولاه، فالكيِّس (أى العاقل) من دان نفسه وعمل لما بعـد الموت، والعـاجـز من أتبع نفسـه هواها، وتمنى على الله الأمانى.

البصر والعمى

من جليل نعم الله علينا وعظيم فضله نعمة العين التى هى نافذة يطلُّ من خلالها الإنسان على العالم من حوله، وتتحصَّل من خلالها المعارف والمعلومات التى تيسر للإنسان التعامل مع الأشياء والأشخاص.

وقد أثبتت إحدى الدراسات الحديثة أن العين تحتل المكانة الأولى من بين سائر الحواس فى تحصيل المعلومات، فهى تستأثر بما يساوى ٨٠٪، بينما يحتل السمع ١٥٪، وبقية الحواس لها ٥٪ فقط.

ولأهمية العين وما تقوم به من وظيفة الإبصار بالنسبة للإنسان سماها الله تعالى الحبيبة والكريمة، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: "سمعت النبى ﷺ يقول: "إن الله تعالى قال: "إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" يريد عينيه. وفى رواية الترمذى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول: "إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة".

وقد يتغافل البعض عن نعمة كهذه بحكم العادة والإلف، لكننا لا ننكر أن من حُرِموا هذه النعمة يباشرون حياتهم بصعوبة، ولا يستطيعون الاستغناء عن معونة الغير لهم، مما يجعلنا

نحرص على شكر الله الذى أنعم علينا بهذه النعمة، وعافانا مما ابتلى به غيرنا.

والذى يقرأ كتاب الله تعالى يجد أن القرآن الكريم يذكّرنا دائماً بضرورة استثمار نعمة البصر فى التعرُّف على الله الخالق، والقيام بما يقتضيه ذلك من الذكر والشكر.

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١).

ويقول رب العزة أيضا: ﴿وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠، ٢١).

ويقول: ﴿فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق: ٦) ويقول: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس: ٢٤). ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (الحج: ٦٥) والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

وجميع الآيات التى ورد فيها ذكر النظر والرؤية والبصر لا تعنى أبداً المعنى المادى، وإنما تهدف إلى التأمل والاعتبار، وهو ما يتجاوز حدود البصر إلى البصيرة.

يقول رب العزة: ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (الحجر: ٧٥). أى للناظرين المعتبرين المتأملين بعين الفكر والبصيرة.

وقد أورد الإمام القرطبى فى تفسيره أن الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما سئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٢) فقال: "إقرءوا ما قبلها ﴿رَبُّكُمْ الَّذِى يُزْجِى

لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ...﴾ (الإسراء: ٦٦) فمن كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى فهو عن نعم الآخرة أعمى .

وفى ضوء هذه المعانى نجد القرآن الكريم لا يعد العمى المادى عن رؤية الأشياء عيباً فى صاحبه، أو عائقاً دون وصوله إلى الكمال، فيقول فى حق الصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (عبس) فالعمى لا يحول دون التزكى والتذكر، بل قد يفوق أناس فقدوا نعمة البصر كثيراً من غيرهم ممن أعطوا نعمة البصر وحرموا البصيرة.

يقول عز الدين أحمد بن عبد الدايم:

إن يُذْهِبِ الله من عينىَّ نورهما

فإن قلبى بصيرٌ ما به ضررُ

أرى بقلبى دنياى وآخرتى

والقلب يدرك ما لا يدرك البَصَرُ

ويقول مجاهد: لكل إنسان أربع أعين. عينان فى رأسه لدنياه، وعينان فى قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلن يضره عماه شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلن ينفعه نظره شيئاً .

لأجل ذلك فإن القرآن الكريم يعلِّمنا أن العمى الحقيقى ليس فى عدم رؤية الأشياء بسبب فقد البصر، وإنما هو غفلة القلب عن الله بسبب فقد البصيرة.

يقول رب العزة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

ويقول عن قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦٤) ويقول عن ثمود قوم صالح: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ (فصلت: ١٧) والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

وجميع الآيات التى ورد فيها ذكر العمى (فيما عدا ما فى سورة عبس وما جاء من مثل قوله تعالى: "ليس على الأعمى حرج") تنصرف إلى عمى القلوب والبصائر، والذى يؤكد القرآن الكريم أن عاقبة أصحابه فى الآخرة هى المعاملة بجزاء من جنس عملهم، فيحشرون عمياً كما كانوا فى الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦)﴾ (طه)

إن عمى العينين بحيث لا يرى صاحبهما شيئاً يمكن أن يستعيض الإنسان عنه بأشياء أخرى، كالحواس السليمة، فضلاً عما يكتب لصاحبه من الأجر لقاء صبره واحتسابه، أما عمى القلب فلا يعوضه شىء، ولا يستعاض عنه بحواس أخرى، وهو طريق الهلاك فى الدنيا والآخرة، والحرمان فى العاجلة والآجلة.

قال أحد الناس يوماً: ما أشد العمى على من كان بصيراً...

فردت عليه امرأة تسمى عقدة بنت الوليد قائلة: يا عبد الله؛ عمى القلب عند الله أشد من عمى العين عن الدنيا. والله لوددت أن الله وهب لي كُنه محبته، ولم يبق مني جارحة إلا أخذها".

فاللهم أدم علينا نعمة البصر، واجعلها سبيلا إلى نعمة البصيرة، وارزقنا حسن النظر إلى وجهك الكريم.

السمع والصمم

تتعدد وسائل الاتصال بين الإنسان والعالم الخارجى من حوله، ومن هذه الوسائل المهمة وسيلة السمع، والتى تعد المصدر الأول للتلقى عند الإنسان، حيث يبدأ عملها معه وهو فى بطن أمه، ومع أول إطلالة له على الدنيا تظل الأذن هى وسيلته للاتصال بالعالم من حوله، وتتأخر العين بضعة أيام حتى تباشر عملها معه، ولأجل ذلك يأتى ذكر السمع مقدماً على البصر فى القرآن الكريم.

وتتميز حاسة السمع بميزة أخرى، وهى أنها تعمل فى حال يقظة الإنسان ومنامه، فلا يستيقظ الإنسان من منامه إذا شم شيئاً أو تحرك أمامه أحد، فإذا أحدثت صوتا تنبه واستيقظ؛ ولأجل ذلك فإن الله حين ألقى النوم على أهل الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً لم يشعروا بما حولهم، لأن الله ضرب على آذانهم فلم يعودوا يسمعون وبالتالى لا يستيقظون. قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾. (الكهف: ١١)

يضاف إلى ذلك أن حاسة السمع تعمل فى جميع الاتجاهات، بعكس البصر الذى لا يرى إلا الأمام أو ما يلتفت الشخص إليه.

وهذه المعانى تؤكد شدة ابتلاء من فقدوا أسماعهم، حيث يعيش الأصم معزولاً عن العالم من حوله ، ويحرم من سماع القرآن وبلاغ الهداية، وبسبب فقدان السمع يفقد الأصم القدرة

على الكلام، فيتضاعف بلاؤه، وتشتد معاناته.

وقد بيَّن لنا ربنا فى أكثر من موضع بكتابه أن الحكمة من وراء نعمة السمع وغيرها من النعم إنما هو استثمارها فى طاعة الله، والاستعانة بها على مرضاته.

يقول رب العزة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨) وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الإنسان: ٢).

ولذا كانت هذه الحواس محل سؤال العبد بين يدى الله يوم القيامة، حيث يقول ربنا: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (الإسراء: ٣٦).

ومن هنا يوجهنا القرآن الكريم إلى ضرورة أن نصغى بآذاننا إلى الحق، ونقبل بأنفسنا عليه، فيقول ربنا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ﴾ (التغابن: ١٦). قدم الأمر بالتقوى وثنَّى بالسمع وثلَّث بالطاعة للإشارة إلى ما أسلفناه من ضرورة الاستعانة بالسمع على طاعة الله.

ويثنى الله على من وظفوا أسماعهم لأجل طاعة ربهم، فيقول فى صفات أولى الألباب ودعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ (آل عمران:١٩٣) وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣) ويقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٥١).

ويحذرنا من أن نسمع بآذاننا ونعرض عن الاستجابة بقلوبنا، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١)﴾ (الأنفال: ٢٠، ٢١).

والمتأمل فى آيات القرآن الكريم التى تحدثت عن السمع يجدها لا تقصد السمع بمعناه المادى المتمثل فى سماع الأصوات، وتمييز الحسن منها من القبيح، وإنما يشير القرآن الكريم إلى السمع للتعبير به عن الوعى والإدراك والتعقل لما أنزله الله، والاستجابة لما أمر به.

فإذا وقف الإنسان بسمعه عند الأشياء المادية، ولم يتجاوزها إلى المعقولات والمدركات فهو فى نظر القرآن أصم، وإن تمتع بسمع يدرك أدق الأصوات وأخفتها.

يقول رب العزة فى شأن المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨).

ويقول فى حق الكفار: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

ويقول فيمن آثر هواه على مرضاة مولاه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٤٤).

ويقول على لسان أهل النار، وهم بين طبقاتها يُعذَّبون: ﴿لَوْ

كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

كما يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)﴾ (النمل: ٨٠، ٨١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (الأنعام: ٣٦) والصمم هنا ينصبُّ على من أغلقوا آذانهم عن سماع الحق، وهؤلاء هم الذين تصفهم الآيات بالأموات، أما الذين استجابوا لله ورسوله فهم الذين يصفهم القرآن بالأحياء، وبأنهم الذين يسمعون.

فليفقه المسلم هذه المعاني، وليبادر إلى استثمار حواسه في معرفة الله والقرب منه، حتى لا تتحول النعمة في حقه إلى نقمة، وتنقلب أعضاؤه يوم القيامة ضده، فتشهد عليه وتفضحه بين الخلائق كما قال ربنا: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)﴾ (فصلت: ١٩، ٢٠).

الكلام والبكم

إن من نعم الله العظيمة على الإنسان نعمة الكلام، والتى بها يعرب عن مكنون نفسه، ويمكنه بواسطتها التفاهم والتعامل مع غيره.

ولجلال هذه النعمة وعظيم قدرها ذكرها الله تبارك وتعالى فى صدر ما أنعم بها على الإنسان، وذلك فى مطلع سورة الرحمن، والتى اشتملت على التذكير بالكثير من نعم الله علينا. يقول رب العزة: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ (الرحمن:١-٤)، وفى إشارة إلى ما تتميز به نعمة الكلام عن سائر النعم يذكر الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه (الإحياء) أن هذه النعمة تتميز عن غيرها من النعم بشمولها لجميع الأشياء، فإن العين لا تصل إلى غير الصور والألوان، والآذان تقتصر وظيفتها على سماع الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، فى حين أن البيان المعبِّر عنه اللسان رحب الميدان؛ فما من موجود أو معدوم، متخيل أو معلوم، مظنون أو موهوم؛ إلا واللسان يتناوله، ويتعرض له بإثبات أو نفى، بمدح أو ذم، فللسان فى الخير وفى الشر مجال واسع.

ولأجل أن يتمتع الإنسان بهذه النعمة يلزمه أن يكون سليم السمع حتى يدرك الكلمات ودلالتها على المعانى فيقلدها، كما يلزمه بعد ذلك مجموعة من الأعضاء تتعاون معاً فى إتمام

عـمليـة الكلام، ومن أهمـهـا: اللسـان والأسنان والشـفـتـان والحنجرة.... الخ.

يقول رب العزة فى معرض الامتنان والتفضل بهذا: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩)﴾ (البلد: ٨، ٩)؛ وإلى جانب هذه الأعضاء الحسية التى تتعاون فى إتمام عملية الكلام يأتى تعليم الله لنا بدلالات الألفاظ على معانيها، وهو ما علمه الله لأبينا آدم عليه السلام، حيث يقول ربنا ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) ثم تولدت اللغات واللهجات التى يتكلم بها الناس، والتى تعد بالآلاف، وكلها من فضل الله على الناس، حيث يقول ربنا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

ولأن الفضل فى ذلك يعود إلى الله تعالى وحده فإنه سبحانه تفضل على بعض عباده فانطقهم فى المهد، ومنهم نبى الله عيسى عليه السلام، والذى قال الله فى حقه ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ٤٦) وذكرت السنة أناساً آخرين كشاهد يوسف وشاهد جريج العابد وغيرهما. فى الوقت نفسه يبتلى آخرون بفقدان هذه النعمة فيظل أحدهم أبكم طيلة حياته، يتعامل مع الناس من خلال الإشارة، مما يفوّت عليه كثيراً من المنافع التى تتحصل من وراء نعمة الكلام.

ودائماً يذكرنا ربنا بضرورة استثمار نعمة الكلام فيما فيه الخير لديننا ودنيانا ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٥٣) وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة: ٨٣) وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (الأحزاب: ٧٠) إلى غير ذلك من الآيات. وينهانا عن توظيفها فيما فيه إثم أو معصية، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (النحل: ١١٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣) إلى غير ذلك من الآيات.

وأضافت السنة النبوية أن اعتناء المسلم بكلماته، ومحافظته على لسانه، هو الطريق لكل خير مرجو، وهو الزمام الذى يقود لكل عمل مَرضِى.

ففى الحديث الذى أخرجه الترمذى وقال عنه: حسن صحيح وكذا النسائى وابن ماجه وأحمد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقد جاء فى ثناياه الدلالة على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه وعلى أبواب الخير المتعددة، ثم قال له النبى ﷺ فى آخر الحديث: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال معاذ: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه ثم قال: كف عليك هذا، قال معاذ: يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم فى النار- أو قال على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم.

وإلى هذا المعنى يشير أحد السلف الصالح واسمه يونس بن عبيد بقوله: "ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال، إلا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله".

● فإذا وُجِدَ أناس لا يلتزمون بهذا المنهج القرآنى والنبوى

فيما فيه يتكلمون، وراحوا ينساقون وراء أهوائهم فيما فيه ينطقون، فهؤلاء يسميهم القرآن الكريم بكماً؛ وإن تكلموا بأفصح الكلام.

يقول الله تعالى فى شأن المنافقين فى سورة البقرة: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨) مع أنه قال عنهم فى سورة المنافقون: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ (المنافقون: ٤) وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الحْيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤).

وقال تعالى عن الكفار فى سورة البقرة أيضاً: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٨).

وقال عن الفريقين معاً فى سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال: ٢٢)، وقال عنهم فى سورة الأنعام: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ﴾ (الأنعام: ٣٩).

ومن مجموع هذه الآيات نجد أن البكم الحسى- بفقدان صاحبه للكلام- لايذم صاحبه ولا يلام؛ فى حين أن من تمتع بنعمة الكلام، وكانت لديه قدرة على الفصاحة والبيان، لكنه أبى إلا الجحود والنكران فهذا هو الأبكم حقاً، ولن يكون له عند الله يوم القيامة إلا جزاء من جنس عمله، كما قال ربنا فى حق أهل الضلال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ (الإسراء: ٩٧).

فليراجع كل منا نفسه، وليعلم أنه لا ينفعه من الكلام إلا ما

كان فى طاعة الرحمن، كما قال ربنا: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٤).

العلم والجهل

١- من صفات الله عز وجل التى حدثنا عنها القرآن الكريم صفة العلم.

وقد بيَّن لنا ربنا فى كتابه أن علمه محيط بجميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، عظيمها وحقيرها، جليلها ودقيقها. والآيات فى هذا المعنى كثيرة لا حصر لها.

٢- وتشير آيات القرآن الكريم إلى أن ما تنعم به البشرية من علوم ومعارف - قليلة أو كثيرة - إنما هو فضل من الله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده.

ففى شأن معرفة الإنسان للقراءة والكتابة يقول رب العزة فى آية الدَّيْن: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وفى شأن تعليم الجوارح الاصطياد يقول رب العزة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (المائدة: ٤). والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

٣- ومن مجموع الآيات نستدل على أن تعلُّم الإنسان لأى شيء مرده إلى فضل الله عليه، كما قال ربنا: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٣٩)، وأنه لولا الله ما علم الإنسان شيئًا أبدًا، كما قال الله فى كتابه: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وأن هذا الذى تعلمه البشرية طرف يسيرٌ جدًا؛ إذا ما قورن بعلم الله المحيط، كما قال ربنا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥) وفى الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما فى قصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام جاء فيه: "فلما ركبا فى السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين فقال الخضر لموسى: "ما علمى وعلمك فى علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر".

٤- وفى ضوء هذه المعطيات يوجهنا ربنا تبارك وتعالى إلى ضرورة أن نسخّر العلم فى طاعة الله، وأن نستثمره فى القرب من الله تعالى، فيقول رب العزة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١)؛ فيعلّمنا أن المطلوب ليس مجرد القراءة، وإنما القراءة التى تعتمد ما يرضى الله تعالى وتقرّب منه.

فإذا سلك العالِمُ هذا المسلك فاستثمر العلم فى طاعة الله، وسار به نحو مرضات الله فهو العالِمُ حقًا، وهو الجدير بأن يعلى الله درجته، ويرفع بين الخلائق رتبته.

يقول رب العزة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١) فأثنى الله عليهم حين جمعوا بين

الإيمان والعلم.

وقال رب العزة: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٤) فقد أثنى عليهم ربهم حين صدَّقوا بما جاءهم من الله، وخشعت لذلك قلوبهم، ولانت جلودهم، فجمعوا بين العلم والعمل، وبين المعرفة والتطبيق.

٥- فإذا وقف العالِمُ عند ظواهر الأشياء، ولم يستدل بالصنعة على صانعها، فهو في نظر الإسلام لا شيء، وإن طار في الهواء، وغاص تحت الماء، وفتت الذرَّة، وأحاط بالمجرَّة.

وفي شأن هؤلاء يقول ربنا: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٦-٧)، ويقول في معرض آخر: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (النجم: ٢٩-٣٠).

ولذا فإن القرآن الكريم يشير إلى أن فرحهم بما لديهم من علم لم يدفع عنهم ضرًا ولم يجلب لهم نفعًا، فقال ربنا: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٣-٨٥).

٦- لقد استعمل القرآن الكريم لفظة (جاهلين) لا على أنها عدم

المعرفة أو قلتها، وإنما للدلالة على تصرفات لا يرضى عنها ربنا، وإن تبوأ صاحبها أعلى المراتب، وحصل على أرقى الشهادات.

فسيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يحكم على الاستجابة لإغراءات امرأة العزيز بأنه جهل وحمق وطيش لا يليق بمن علمه الله وحيه فنادى ربه قائلا: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣)، وسيدنا نوح عليه وعلى نبينا السلام حين سأل ربه أن ينجى ولده الذى لم يكن عمله صالحاً معتبرا دخوله فى مفهوم أهله الذين وعده الله بنجاتهم، حذره القرآن أن يكون من الجاهلين بسنة رب العالمين المطبقة على أبناء الأنبياء وعلى غيرهم على السواء حيث لا يعتبر الابن من أهل الرجل إلا إذا كان عمله صالحا فقال له: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦) وحين اشتد حرص نبينا محمد ﷺ على هداية قومه حتى كاد يهلك نفسه أسفا وأسى على صدودهم وإعراضهم خاطبه ربه محذرا إياه أن يكون جاهلا بحكمة الله فى الهداية فقال سبحانه ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام: ٣٥).

وعلى هذا النحو - أيضًا - جاء وصف القرآن الكريم للجاهلية، لا باعتبارها زمنًا ماضيًا، وإنما باعتبار تصرفات أصحابها، فهناك ظن الجاهلية، وحكم الجاهلية، وتبرج

الجاهلية، وحمية الجاهلية.

٧- وهذا ما يجعلنا نؤكد على أن العلم هو ما حمل أصحابه على إدراك سنن الله فى كونه وعلى تقوى الله ورضوانه، فإن أبت نفوسهم إلا الجحود والنكران ومبارزة الله تعالى بالمعاصي، فهم الجاهلون، دون نظر إلى أىً اعتبار.

يقول سفيان بن عيينة رضى الله عنه: "إن أنا عملت بما أعلم فأنا أعلم الناس، وإن لم أعمل بما أعلم فليس أحد فى الدنيا أجهل منى".

والشاعر يقول:

والعلم إن لم تكتنفْه شمائل

تعليه كان مطية الإخفاق

لا تحسبن العلم ينفع وحده

ما لم يتوج ربه بخلاق

فاللهم علمنا ما جهلنا، وعلمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعله حجة لنا لا علينا.

اللبـاس والعــرى

١- إن من نعم الله العظيمة على بنى آدم ما يسَّره لهم من أسباب تعينهم على ستر عوراتهم، ومواراة سوآتهم، ويضاف إلى هذا كذلك ما يتجملون به ويتزينون من ملابس وأردية.

يقول الله تعالى فى معرض الامتنان والتفضل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (النحل: ٨١). ويقول سبحانه: ﴿يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾ (الأعراف: ٢٥) والمراد بالريش فى هذه الآية الكريمة ما يترفُّه به الإنسان ويتزين به من الثياب فوق كونه يوارى السوآت.

٢- وقد ورد ذكر المنَّة باللباس والريش فى سياق الحديث عن قصة آدم عليه السلام مع عدو الله إبليس، وكيف أن إبليس بوسوسته له وإغوائه وإضلاله قد تسبب فى كشف العورات وافتضاح السوآت، كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ (الأعراف: ٢٠) فلما حدث ما حدث وانكشفت العورات بسبب المعصية لم يترك الله آدم وزوجه لهذا الخزى والعار، وما يصيبهما من حياء مستمر لكشف تلك السوآت، فأوجد فى الأرض الأسباب المعينة لآدم وذريته على ستر العورات وإخفاء ما انكشف منها. وهذا فضل

يذكر لله تعالى فيشكر.

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى وابن ماجه وأحمد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من لبس ثوباً جديداً فقال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به، كان فى كنف الله وفى حفظ الله وفى ستر الله حياً وميتاً".

٣- وقد أباح الإسلام فى مجال اللباس - بل حث ورغَّب - أن يرتدى المسلم من اللباس ما يكون فيه جميلاً، وأن يكون فى حال يسره وغناه مُظْهِراً من خلال ملابسه لنعمة الله عليه.

أخرج مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يجب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس". وتذييل الحديث بهذه الجملة "إن الله جميل يحب الجمال" يعطى انطباعاً بأن التجمل فى الثياب ليس مباحاً فقط، بل هو مستحب ومرغوب فيه.

وأخرج أبو داود فى سننه عن أبى الأحوص عن أبيه قال: "أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون، فقال: ألك مال؟ قال: نعم، قال: من أى المال؟ قال: قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق.

قال: فإذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته".

٤- ولئن كان اللباس الذى يستر العورات ويجمِّل الهيئات نعمة من الله سيقت إلينا كما قال ربنا فى سياق الحديث عن

هذه النعمة ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ (النحل: ٨١) فإن من الناس من حوّل هذه النعمة إلى كفران، كما قال ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨) وينطبق هذا على من اثروا التبرج على الاحتشام، وكشفوا العورات، وتحولت الملابس فى حقهم إلى مسخ لإنسانيتهم، وأصبح اللباس لديهم وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، ومجالاً رحباً للإسراف والتبذير، وضاعت مع ذلك مظاهر الرجولة الحقة، والأنوثة المحافظة، وهو عين ما حذرنا الله تبارك وتعالى منه فى سياق الحديث عن نعمة اللباس، حيث قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٧).

٥- ولأجل ذلك وضع الإسلام ضوابط عامة ينبغى مراعاتها عند اختيار الإنسان لملابسه، ومن أهم هذه الضوابط:

أ - البعد عما فيه سرف أو خيلاء.

ب - البعد عن تشبه الرجال بالنساء والعكس.

جـ - البعد عما فيه تشبه بالكفار.

د - ألا تكون ملابس الرجال من الحرير.

هـ - أن تكون ملابس النساء فضفاضة لا تصف، وصفيقة لا تشف، وأن تستر جميع البدن باستثناء الوجه والكفين على أقصى تقدير، وألا تكون ملابسها زينة فى نفسها تجذب أنظار الرجال إليها.

أما التعرى والتبرج فهو بشهادة من عاينوا ثمراته، وذاقوا مراراته ينزل بالإنسان من قمة الإنسانية إلى درك الحيوانية، ويخلع عنهم الحسن ويلبسهم القبيح. تقول امرأة مجرية: "الأزياء الخليعة والعارية التى ترتديها المرأة الغربية تضفى عليها قبحاً داخلياً وخارجياً".

٦- وإذا كنا قد تحدثنا عن اللباس من حيث الصورة، فإن القرآن الكريم الذى جاء لإصلاح الظاهر والباطن والسر والعلانية قد دلنا على لباس من شأنه أن يستر عيوب نفوسنا، ويرقى بآدميتنا، وذلكم هو لباس التقوى الذى أشارت إليه الآية الكريمة (ولباس التقوى ذلك خير).

فإن اللباس المادى إذا كان يحفظ الجسد من الحر والبرد، ويقيه من الأخطار، وهو فى الوقت نفسه مظهر للجمال وأداة للزينة، فإن التقوى تستر عيوب الإنسان وتقيه من الشرور والآثام، وتضفى عليه جمالاً وبهاء يرفعه إلى أعلى الدرجات، ويسمو به إلى أرفع المراتب، ولباس التقوى هو اللباس الحقيقى، فمن تعرّى منه فهو العارى حقاً، وإن تسربل بأفخم الثياب، وارتدى أفخر الرياش.

وصدق من قال:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى
تقلب عرياناً وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا خير فيمن كان لله عاصياً

٧- وفى ضوء هذا المفهوم القرآنى يرتفع قدر المرء المسلم- وإن كان رث الثياب - إذا عَمُر قلبه بالإيمان، وتحلى بالفضائل النفسية والشمائل الخلقية على إنسان آخر خلا من هذه المعانى وإن تحلى بظاهر أنيق.

أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أنه قال: "مرَّ رجل على رسول الله ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك فى هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفَّع. قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرَّ رجل، فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك فى هذا؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: "هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا".

ويقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه فى هذا المعنى:

أَجِدِ الثياب إذا اكتسيت فإنها
زين الرجال بها تُعزّ وتكرم
ودع التواضع فى الثياب تخشعاً
فالله يعلم ما تجن وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفة
عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرك بعد أن
تخشى الإله وتتقى ما يحرم

ويقول بكر بن عبد الله المزنى رضى الله عنه: "البسوا ثياب الملوك، وأميتوا قلوبكم بالخشية" وبهذا المفهوم المتكامل لمعنى اللباس يحرص المسلم على جمال مظهره ومخبره، وصلاح سره وعلانيته، والاهتمام بقلبه وقالبه، وكل هذا فى إطار عبادته لله تعالى، إقراراً بفضله، وخضوعاً لأمره.

الغنـــى والفقـــر

١- لا ينكر أحد ما للمال من أهمية تلقى بظلالها على حياة الأفراد والمجتمعات، فضرورات الفرد وكمالياته لا تتم إلا بالمال وشئون الجماعة المختلفة لا تقوم إلا عليه، ولذا قيل: "المال عصب الحياة" وقال الشاعر:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمُ
لم يبن ملك على جـــهل وإقـــلال

ويقول التابعى الجليل سعيد بن المسيب رضى الله عنه: "لا خير فيمن لا يُعنى بالمال، يقضى به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه".

وعلى مستوى الشعوب فطنت بعض الفئات- وعلى رأسهم اليهود- إلى أهمية المال فى تحقيق السيطرة والهيمنة على الآخرين، فعملوا على أن تكون لهم اليد الطولى على بقية الشعوب فى امتلاكه.

ومما يذكر فى هذا المجال قول كارل ماركس فيلسوف الشيوعية: "إن اليهودى الذى لا يحسب له حساب فى فيينا (عاصمة النمسا) هو الذى يقرر بقوة المال مصير النمسا كلها، واليهودى الذى يكون فى أصغر الولايات الألمانية محروماً من الحقوق هو الذى يقرر مصير أوروبا بأجمعها".

٢- وإذا كانت للمال كل هذه الأهمية فليس بغريب أن يحتفى الإسلام به، وهو الدين الذى ينشد القوة والعزة لأتباعه. يقول

رب العزة- مشيراً إلى أهمية المال-: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (النساء: ٥) أى: لا يحصل قيامكم ولا معاشكم إلا به.

ويقول تعالى مشيراً إلى أن المال أساس فى التمتع بزينة الدنيا التى أتاحها لنا بشرط عدم طغيانها على العمل للآخرة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (الكهف: ٤٦) وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤) وقد قال ربنا فى آية أخرى فى شأن الزينة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

بل يصل احتفاء الإسلام بالمال أن الله تعالى جعله مظهراً من مظاهر امتنانه على خلقه، ييسر لهم الحصول عليه والبركة فيه إن هم أطاعوه، فيقول تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وفى الحديث الذى رواه البخارى وغيره "من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه".

ومن هنا تسقط كل الدعاوى التى تزعم بأن الإسلام يكره المال، سواء أقالها مسلم جاهل، أم كافر مغرض ليبعد المسلمين عن

دوائر المال فتسهل سيطرة أعدائهم عليهم.

٣- والمتأمل فى حياة أصحاب النبى ﷺ يجد كثيرين منهم كانوا أغنياء، وأنهم وظفوا ثرواتهم لخدمة دين الله تعالي، فنالوا بذلك سعادة الدنيا وكرامة الآخرة، ومن هولاء الصحابة أبو بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وغيرهم.

يقول الحافظ ابن حجر فى كتابه فتح البارى: "دعوى أن جمهور الصحابة كانوا على التقلل والزهد ممنوعة بالمشهور من أحوالهم، فإنهم كانوا على قسمين بعد أن فتحت عليهم الفتوح، فمنهم من أبقى ما بيده من التقرب إلى ربه بالبر والصلة والمواساة مع الاتصاف بغنى النفس، ومنهم من استمر على ما كان عليه قبل ذلك، فكان لا يبقى شيئاً مما فُتحَ عليه به، وهو قليل بالنسبة للطائفة الأخرى، ومن تبحَّر فى سير السلف علم صحة ذلك، فأخبارهم فى ذلك لا تحصي".

٤- فإن أقبل العبد على اكتساب المال، وأدى حق الله عليه فيه، وقام بصرفه فى وجوه الخير المشروعة، فهذا فضل يذكر لله تعالى فيشكر، وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد: "نعم المال الصالح للرجل الصالح". وقد رغَّب الإسلام فى كثير من الآيات فى استثمار المال للتجارة به مع الله، وبيان أن هذا طريق المؤمنين المؤدى بهم إلى الفوز فى الدنيا والفلاح فى الآخرة.

يقول رب العزة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٢٩-٣٠).

وقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الصف: ٩-١٢) مع ملاحظة أن معظم الآيات التى ورد فيها الجهاد بالنفس والمال تقدم فيها ذكر المال على النفس.

٥- أما إذا تحول المال لدى صاحبه إلى هدف يُقصد لذاته، وانكبَّ على جمعه دون رعاية لله فى مصدره ومصرفه، واحتبسه دون أن يؤدى حقوق الله فيه فهذا داء وبيل، وشر مستطير.

يقول رب العزة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

وفى الحديث الذى رواه الشيخان: "من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان (أى ثعباناً كثير السم له نكتتان سوداوان فوق عينيه) يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه (يعنى شدقيه) ثم يقول: أنا كنزك، أنا مالك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

٦- وتعلمنا السنة أن كثرة المال أو قلته ليست هى المقياس الذى يُحكم به على الشخص بأنه غنى أو فقير، ففى الحديث الذى رواه الشيخان: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس".

وفى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه: "أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: "إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت قبل أن يقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار".

وكلا الحديثين يتناول الغنى والفقر بعيداً عما تعارف عليه الناس من النظر إلى كثرة المال أو قلته، ويجعل المحك الحقيقى هو السمو بالنفس إلى معالى الأمور، والدفع بها عن دناياها.

٧- ومن هنا عاب الله تعالى على من ارتكن إلى كثرة ماله، وحسب أنه سبيل عزته وكرامته.

يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ..﴾ (الهمزة: ١-٤).

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ (المدثر: ١١-١٦).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ

بِمُعَذَّبِينَ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سبأ: ٣٥-٣٧).

٨- إن الرضا بما قسم الله، والتطلع إلى ما لديه من ثواب فى الآخرة هو الغنى الحقيقى، أما التنافس على الدنيا والتطلع إلى تحصيل المزيد منها فهذا هو الفقر بعينه، وإن جمع صاحبه من المال مثل ما جمع قارون.

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه: (طريق الهجرتين، وباب السعادتين): "الغنى قسمان: غنى سافل وغنى عال، فالغنى السافل الغنى بالعوارى المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى، فإنه غنى بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأن الغنى بها كان حلماً فانقضي، ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذى هو ظل زائل، وهذا غنى أرباب الدنيا الذى فيه يتنافسون، وإياه يطلبون، وحوله يحومون.

والغنى العالى هو الغنى بالله تعالى، فإن الغنىَّ إنما يصير غنياً بحصول ما يسد فاقته، ويدفع حاجته، وفى القلب فاقة عظيمة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى الحميد، الذى إن حصل للعبد حصل له كل شىء، وإن فاته فاته كل شىء، فكما أنه سبحانه الغنىُّ على الحقيقة- ولا غنىَ سواه- فالغنىَ به هو الغنىَ فى الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة" أ.هـ بتصرف.

وقال أيضاً: إن فى القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أُعطِىَ الدنيا وما فيها، لم تسد تلك الفاقة أبداً.

الطهـــارة والنجاســـة

١- لا يخفى على أحد ما أعطاه الإسلام من عناية واهتمام لنظافة الأبدان وطهارة الأجسام، بحيث أصبحت الطهارة بهذا المعنى عنواناً على هذا الدين، وسمة يتميز بها المسلمون.

وفى الدلالة على ما للطهارة من مكانة سامقة فى ديننا ورد عن النبى ﷺ فى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه قوله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان".

٢- وقد ارتبطت الطهارة فى حياة المسلم بأعمال لا ينفك عنها فى يومه وليلته، فهو لا يستغنى عن قضاء حاجته، كما أنه لا يستغنى عن عبادة خالقه، وقد أمره الإسلام إذا قضى حاجته أن يدفع عنه الأذى بالتطهر من النجاسة، وإذا أقبل على عبادة خالقه أن يكون طاهر البدن والثياب والمكان، وأن يسبق صلاته بطهارة أعضائه الظاهرة بالاغتسال من الجنابة إن وجدت، وبالوضوء إن لم يكن جنباً.

يقول رب العزة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦).

٣- ومع ما فرضه الإسلام من غسل عند الجنابة ووضوء عند كل حدث إذا أراد المرء الصلاة، فإن الإسلام لم يقف عند هذا الحد، فقد رغب الإسلام فى الاغتسال للعبادات التى تقتضى اجتماع الناس كالجمعة والعيدين وغيرهما، ففى الحديث الذى رواه الشيخان: "غسل الجمعة واجب على كل محتلم". والمحتلم هو البالغ، وقوله: "واجب" أى أن سُنيَّة هذا الغسل متأكدة كتأكد الواجب.

٤- وفى ذات الوقت رغب الإسلام فى السواك، وجعله مطهرة للفم، ومرضاة للرب، كما ندب الإسلام أتباعه إلى تعهد النظافة المتعلقة بكل الأعضاء، فدعا إلى تقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة وغسل البراجم- وهى الأماكن التى يمكن أن يتجمع فيها الوسخ، كما بين الأصابع وغيرها- إضافة إلى خصال أخرى بين الإسلام أنها من خصال الفطرة، ودعا إليها وحث عليها.

٥- وقد جاء فى القرآن الكريم الثناء من الله على من يحبون الطهارة ويحافظون عليها، حيث يقول رب العزة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢). ويقول سبحانه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨) وفى الحديث الذى رواه الشيخان: إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء".

٦- والذى نؤكد عليه هنا هو أن الطهارة- وضدها النجاسة- لا تقتصر فى استعمالات القرآن الكريم على الجانب المادى فحسب، فإن طهارةَ الأبدان ما لم ترافقها طهارةُ القلوب والأرواح تصبح شكلاً بلا مضمون.

ومن هنا ساق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الكثير من الأدلة على ضرورة عناية المسلم بطهارة قلبه مع قالبه، ونظافة مخبره مع مظهره، بحيث لا يهتم بأحدهما دون الآخر.

وفيما يلى نتعرف على بعض هذه الأدلة:

أ- يقول رب العزة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

ب- ويقول ربنا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧-٩) وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (الأعلى: ١٤) وقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (الليل: ١٧، ١٨) والمراد بالتزكية فى كل هذه الآيات إنما هو تطهير النفس من أدرانها، والبعد بها عن آثامها.

جـ - وفى الحديث الذى رواه الشيخان فيما كان يستفتح به رسول الله ﷺ صلاته: "اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد".

وقوله: "نقنى" وقوله: "اغسلنى" يدلان على المعنى الذى نقصده، وهو أن الطهارة لا تقتصر على الجانب المادى فحسب.

٧- فى الوقت نفسه ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما يدلنا على أن النجاسة- وهى ضد الطهارة- لا يقتصر إطلاقها على الجانب المادى فحسب، بل ينسحب أيضاً على الأفكار والأعمال.

يقول رب العزة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا

يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة: ٢٨) والمراد بنجاسة المشرك هنا نجاسة اعتقاده وتصوره، فإن أجسام المشركين ليست نجسة بذاتها.

وإلى هذا المعنى أيضا أشارت الآية الكريمة الأخرى فى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (آل عمران: ٥٥) أى: مخرجك من جملتهم، ومنزهك أن تفعل فعلهم.

وورد فى الحديث المتفق عليه: "إن المؤمن لا ينجس" وكذلك ورد فى السنة تسمية الذنوب والمعاصى بالقاذورات، ففى الحديث الذى رواه مالك فى الموطأ فى قصة رجل أصاب ذنباً يستوجب الحد، فجاء إلى النبى ﷺ ليقيمه عليه، فقال النبى ﷺ: "من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله، فإنه من يُبدى لنا صفحته نقم عليه حد الله". وورد فى غير هذه الرواية أن فاعل الذنب كان يأتى إلى النبى ﷺ قائلاً له: طهرنى يا رسول الله.

ودعا النبى ﷺ لشاب جاء يستأذنه فى الزنا، فبعد أن نصحه ووجّهه قال: اللهم طهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا بعد.

٨- ونخلص من هذا كله إلى أن الطهارة الحسية- وإن كانت مطلوبة- فإن طهارة القلوب من النفاق والرياء، وطهارة النفوس من الشح والعجب، وطهارة الأعين من الخيانة، وطهارة الأيدى من الحرام....، هذه كلها أمور أشد ضرورة وأكثر طلباً، وأن الإنسان لن يفيده أن يكون طاهر الثوب، نظيف البدن، طيب الريح، فى حين أنه يحوى قلباً أسود، أو نفساً أمارة بالسوء، لا

يحل حراماً، ولا يحرم حلالاً.

فما أجمل أن يترسم المسلم هذه الخطى، فيحرص على نظافة مظهره ومخبره، ويعتنى بحسن صورته وحسن سريرته.

الجمـــال والقبـــح

١- المتأمل فى القرآن الكريم يجد أن الله تعالى يصف فى كتابه العزيز جميع ما صنعه بالإتقان فيقول: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، كما يضفى على جميع ما خلق وصف الإحسان، فيقول: ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧).

وفى موضع ثالث يتحدى أن يثبت أحد أن فى أى خلق من مخلوقاته خللاً أو اضطراباً فيقول سبحانه: ﴿مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣-٤).

٢- ومن مظاهر الإتقان والإحسان التى عمّت جميع المخلوقات يذكرنا ربنا بنعمة الجمال التى أوجد عليها بنى الإنسان، فيقول: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن: ٣)، ويقول فى موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦-٨).

٣- وقد أفاض العلماء فى ذكر مظاهر هذا الجمال فى خلق الإنسان، ومن هؤلاء الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه "مفتاح دار السعادة"، ومن بين ما قاله: "فانظر كيف حسّن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما، ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وستراً

وحفظاً وزينة... ثم غرس فى أطراف تلك الأجفان الأهداب جمالاً وزينة ومنافع أخر وراء الجمال والزينة... ونصب سبحانه قصبة الأنف فى الوجه فأحسن شكله وهيأته... وكان وجود أنفين شيئاً ظاهراً، فنصب فيه أنفاً واحداً، وجعل فيه منفذين، وحجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين.

وزين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التى هى جمال وزينة، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس، متناسقة الترتيب، كأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً... وزين سبحانه الرأس بالشعر، وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير، فزينه بالحاجبين، وجعلهما وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلى العينين، وقوّسهما، وأحسن خطهما، وزين الوجه أيضاً باللحية، وجعلها كمالاً ووقاراً ومهابة للرجل، وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة".

أ.هـ بتصرف يسير.

إن الله جمّل الإنسان- إضافة إلى ما ذكره الإمام ابن القيم- بقوامه المعتدل، الذى يتماثل يمينه مع شماله بلا اعوجاج أو انحراف، كما جمّله بالسير على قدميه، والأكل بيديه، والتناسق والانسجام بين كل أعضائه، بحيث لا يتخيل أن يكون شكل الإنسان أفضل مما هو عليه، وصدق الله العظيم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

٤- ولئن كان الجمال البدنى منحة إلهية يتمتع بها بنو آدم- مع اختلاف بينهم بنسب متفاوتة- فإنه ليس محلاً لنظر الله تبارك وتعالى، وليس مناطاً لتكريم إنسان عن آخر لكون حظه

من الجمال أوفر، أو قدره من الحسن أكثر، ففى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم" وفى رواية أخرى لمسلم أيضا: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

٥- إن الإنسان إذا تأمل بعين البصيرة فى جمال بدنه وحسن صورته سيدرك أنه لا دخل له فى اختياره مطلقاً، كما أنه سرعان ما يفقد بريقه إذا كبرت سنُّه، أو ألمَّ به مرض، وأن هذا الجمال طال به العمر أو قصر سوف ينزوى بالموت، ويتحلل الجسد إلى تراب.

ومن هنا تدعونا تعاليم الإسلام إلى حسن أبهى، وجمال أبقى، ألا وهو حسن الأخلاق، وجمال الطباع، ومبعث ذلك كله الروح، التى هى مناط التكريم، وسر التفضيل.

يقول الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله فى كتابه (إحياء علوم الدين): "الخَلْقُ والخُلُقُ عبارتان مستعملتان معاً، يقال فلان حسن الخَلْق والخُلُق، أى : حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركّبٌ من جسد مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئة وصورة، إما قبيحة، وإما جميلة، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمرها بإضافتها إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فنبه على أن

الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس فى هذا المقام واحد" أ.هـ.

وصدق من قال مشيراً إلى هذا المعنى:

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته
أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على الروح واستكمل فضائلها
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وقال آخر:

جمال الروح ذاك هو الجمال
تطيب به الشمائل والخلال
ولا تغنى إذا حسنت وجوه
وفى الأجساد أرواح ثقال
زهور الشمع فاتنة ولكن
زهور الروح ليس لها مثال

٦- إن الإنسان شخص وشخصية فى وقت واحد، وشخصه هو شكله وهندامه وطوله وعرضه وأما شخصيته فعقله ونفسه، وبقدر ما فى عقله من نضج وفى نفسه من حسن يرتفع قدره أو ينخفض، ويجمل سلوكه أو يقبح، ولن ينفع صاحب الخلق القبيح أن يكون سمته حسناً، وخلقته سوية.

وصدق من قال:

ليس الجمال بأثواب تزيننا
إن الجمال جمال العلم والأدب

كما أن صاحب الخلق العالى، والهمّة الرفيعة لن يضيره أن يبتلى فى بعض أعضائه بنقص أو قصور، إذا عاش ينتصر

للحق، ويعمل على نشر الفضيلة، وكثيراً ما نسمع عن محدثين وفقهاء وأدباء ومؤرخين يقال لأحدهم: الأعرج، ولأحدهم: الأعمش، ولأحدهم: الأعور.... الخ وقد نقش كل منهم بأخلاقه السامية وهمته العالية حروفاً من نور فى صفحات التاريخ، وصدق حبر الأمة وترجمان القرآن سيدنا عبد الله بن عباس- وقد ابتلى بكف بصره فى آخر حياته فقال:

يعيرنى الأعداء والعيب فيهمو
وليس بعيب أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والوفا
فإن عمى العينين ليس يضير

٧- وفى ضوء هذه المعانى تتجلى لنا حقيقة الجمال فى حياتنا، فجمال الرجل ليس فى بياض بشرته، ولا نعومة شعره، ولا فى حسن هندامه، ولا فى تناسق قوامه، وإنما جماله فى رجولته العفيفة، وحرصه على الأخلاق الحميدة، ومن دعائه ﷺ فيما يشير إلى ما يتزين به الإنسان ويتجمل، قوله: "اللهم زينى بالحلم، وجملنى بالتقوى، وأكرمنى بالعافية".

وبهذه المناسبة نذكّر بأن جمال المرأة ليس فى إبدائها لزينتها، وإنما جمالها فى عفتها، ونقاء إنسانيتها، ورفعة أخلاقها، وقد روى فى هذا أن امرأة مؤمنة كانت تتمتع بالحسن سئلت عن أدوات تجميلها، فقالت: "أستخدم الصدق لشفتى، والإحسان ليدى، والقرآن لصوتى، والاستقامة لقوامى، والرحمة والشفقة لعينى، والإخلاص لله لقلبى".

ونصح رجل ابنته فقال:

يا ابنتي إن أردت آية حسن
وجمالاً يزين عقلاً وجسماً
فانبذي عادة التبرج نبذاً
فجمال النفوس أعلى وأسمى
يصنع الصانعون ورداً ولكن
وردة الروض لا تُضارع شكلاً

٨- إن تمتع الإنسان بحسن الخَلْق نعمة تُذكر لله فتُشكر، ولكنها لن تغني عن الإنسان شيئاً إلا إذا ضم إليها حسن الأخلاق، وجمع ما بين جمال الصورة وجمال الحقيقة، ومن ثم سأل رسولنا ﷺ ربه كما أنعم عليه بحسن الخلق أن ينعم عليه بحسن الخُلُق، ففي الحديث الذي رواه أحمد في مسنده: "اللهم أنت أحسنت خلْقي فأحسن خُلُقي" ومن دعاء بعض السلف: "اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك".

وليتذكر المسلم أن مقاييس الناس يوم القيامة- جمالاً أو قبحاً- لا تخضع لشيء مما كانوا عليه في الدنيا، وإنما مقاييس ذلك تعود إلى ما قدموه من عمل: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

يقول رب العزة: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ١٠٦ - ١٠٨).

فاللهم زينا بزينة الإيمان بك، وجملنا بحسن التوكل عليك، وبيض وجوهنا يوم نلقاك.

القـــوة والضعـــــف

١- يبدأ الإنسان حياته ضعيفاً لا طاقة له بشيء ولا قدرة له عليه، فهو ضعيف جسماً، ضعيف إرادة، ضعيف عقلاً وفكراً، فإذا بعناية الله تعالى تحوطه من كل جهة، وتمده بأسباب المعونة فى نفسه وفيمن حوله؛ حتى يمكنه فيما بعد الاعتماد على نفسه، والاستغناء عن غيره.

والله تعالى يذكّرنا بهذه البداية وما تلاها من إمداده لنا بالقوة والقدرة حتى نستطيع أن نباشر حياتنا.

يقول رب العزة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨). ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (الروم: ٥٤). والشاعر يقول فى تذكير الإنسان بهذه المعانى:

وقـــد أُنبتَّ كـــالزرع ابتـــداء
ومـــا تدرى لطعم أو ســـقـــاء
فـــحـــصّلْت القُـــوى من فـــضل ربى
وصـــرت من الرجـــال الأقـــوياء

٢- وقد علَّمتنا السنة المطهرة أن نتوجه إلى الله تعالى دائماً بأن يحفظ لنا قوة أبداننا، وأن يمتعنا بها فى حياتنا حتى نلقاه، فقد روى الترمذى بسند حسن عن ابن عمر رضى الله

عنهما قال: "قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: "اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا... الخ" ومعنى قوله: "واجعله الوارث منا" أى اجعلنا نتمتع بها حتى آخر لحظة فى حياتنا، فكأنها هى التى ترثنا، ولا نفقد شيئاً منها فى حياتنا.

ومن الأدعية التى يستحب أن تقال ثلاثاً فى كل صباح ومساء: "اللهم عافنى فى بدنى، اللهم عافنى فى سمعى، اللهم عافنى فى بصرى، لا إله إلا أنت" رواه أبو داود.

٣- ولئن كانت القوة البدنية مطلباً يحرص عليه الإسلام فإن هذا لا يعنى استخدامها فى ظلم عباد الله وإيقاع الشرّ بهم وتضييق الخناق عليهم، وإنما للاستعانة بها على طاعة الله تعالى، وفى الدعاء المأثور عن النبى ﷺ ما يدل على ذلك، ونصّ الدعاء: "اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوّة لى فيما تحب، اللهم وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب" رواه الترمذى وحسنه.

وواجه الإسلام بصرامة وشدة كل من سولت له نفسه استخدام ما منحه الله من قوة فى ظلم عباد الله. وفى هذا جاء قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ

الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ (فصلت: ١٥، ١٦).

وعن أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه فيما أخرجه مسلم فى صحيحه قال: "كنت أضرب غلاماً لى، فسمعت من خلفى صوتاً: اعلم أبا مسعود؛ لله أقدر عليك منه. فالتفتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حرٌّ لوجه الله. فقال: "أما لو لم تفعل، للفحتك النار، أو لمستك النار". وجاء فى مأثور الحكمة: "إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك".

٤- إن الإنسان الذى يعجز عن أن يكبح جماح نفسه، وينطلق وراء شهواته، غير مبال بما يعود عليه أو على الآخرين من ضرر من جراء تصرفه... هذا يُعَدُّ فى نظر الإسلام ضعيفاً عاجزاً، وإن لبس أفخر الثياب وارتقى أعلى المناصب، أو مشى فى ركاب الملوك، ففى حديث الترمذى: "والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى". فى حين أن الشخص الذى يملك زمام نفسه، ويقودها إلى الخير هو القوى حقاً دون نظر إلى ضآلة جسمه، أو ضعف بنيته، ففى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه: "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب".

ولذا يخطئ كل من يتصور القوة تصوراً مادياً فحسب، يتمثل- من وجهة نظره- فى سواعد مفتولة، وأجسام شداد، أو يتصور القوة فى كثرة مال أو كثرة أتباع، أو يتصورها فى قدرته على ممارسة الجبروت والطغيان، أو يتصورها فى منصب أوجاه، أو يتصورها فى القدرة على إجادة فنون المكر والخداع والتلون حسبما يقتضيه الحال، إلى غير ذلك من التصورات التى تنطلق من الأرض وإليها تعود.

٥- إن أهم عناصر القوة قوة المرء فى إيمانه بربه، واعتماده عليه، هذه القوة التى تجعل صاحبها إذا تكلم كان قوياً واثقاً فى كلامه، وإن عمل كان قوياً ثابتاً، يأخذ تعاليم دينه بقوة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٩٣) وينقلها إلى غيره بقوة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ (الأعراف: ١٤٥). فالمؤمن بربه حق الإيمان لا يخشى إلا الله، ولا يرجو سواه، ولا يخاف فيه لومة لائم، يدور مع الحق حيث دار، ولا تستعبده شهوة، ولا تستذله رغبة أو رهبة.

وفى القرآن الكريم نماذج عديدة لهذه القوة التى جعلت أصحابها لا يبالون بما يواجهونه من صعوبات، وما يقع عليهم من عقوبات، فعلى سبيل المثال لا الحصر قصَّ علينا القرآن قصة سحرة فرعون، الذين خالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فواجهوا جبروت فرعون وتهديده بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه: ٧٢).

كذلك قصَّ علينا القرآن قصة أصحاب النبى ﷺ الذين ثبتوا معه رغم كثرة الجراحات، ولم يلتفتوا إلى من حاول بث الخذلان فى صفوفهم، وفيهم يقول رب العزة: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٣- ١٧٤) وصدق من قال:

هتف الزمـــان مـــهللاً ومكبـــراً

إن العـــقـــيـــدة قـــوة لن تقـــهـــرا

٦- إن قـوة الإرادة، ومـضـاء العـزيمة، وتسـخـيـر الإمكانات المتـاحـة لنصرة ديننا ورفـعـة شأننا هى فـيصل التـفـرقـة بين الأقوياء والضعفاء دون نظر إلى ضخامة الأجسام وثقل الأوزان، ودون اعتداد بمنصب أو مال.

فهذا سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يتعرض المسلمون فى عهده لعدة فتن كادت تعصف بالأمة جميعها- وعلى رأسها فـتنة المرتدين ومـانعى الزكـاة- فإذا بـه- وهو الرجل النحـيل الجـسم، والذى لا يملك نفسـه عند تلاوة القـرآن من البكاء- يتحول إلى أسد هصور يقول لسيدنا عمر: "أجبَّار فى الجاهلية خـوار فى الإسـلام؟ أينقص الدين وأنا حى؟ والله لو منعـونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فـرَّق بين الصلاة والزكاة.. (الخ) وهذا سيدنا عبد الله بن مسعود يضحك الصحابة يوماً لدقة ساقه، فيقول لهم النبى ﷺ: "لَرِجْلُ عبد الله فى الميزان أثقل من جبل أحد".

ومن كلمات الإمام الشافعى رضى الله عنه:

علىَّ ثيـــاب لو تقـــاس جـــمـــيـــعـــهـــا

بفلس لكان الفلس منـهن أكـــثـــــرا

وفـــيـــهن نفس لو تقـــاس ببـــعـــضـــهـــا

نفـــوس الورى كـــانت أجلَّ وأكـــبـــرا

تلك هى القوة الحقيقية، وليست قوة الأجسام الفارهة ذات الأحـلام الفـارغـة، والتى ينساق أصـحـابها وراء شـهـواتـهم الهابطة، ويتعلقون بدنياهم الفانية، وفى الصحيحين من حديث

أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة" وقال: اقرءوا ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ (الكهف: ١٠٥).

٧- إن الخيريّة فى أى إنسان تخضع لإيمانه بربه، بغضّ النظر عن بنيته الجسمانية، فإذا جمع الإنسان قوة الجسد إلى قوة الإيمان فهو خير إلى خير، وإلا فإن المؤمن مهما كان ضعيفاً فإنه خير من ملء الأرض ممن ليسوا على إيمان، وصدق رسولنا ﷺ حيث يقول فى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه: "المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍّ خير".

العـــزة والذلـــة

١- من الصفات الهامة التى لا يستغنى عنها أحد: صفة العزة. هذه الصفة التى تعد صمام أمان للفرد والمجتمع على السواء، فبالعزة تنمو الفضائل، وتنمحى الرذائل، وبالعزة تستجلبُ المكارم وتُستدفَع المكاره، وبالعزة يرقى الفرد والمجتمع ويستعلى على ركام الأرض، فلا ذلة لدنيا، ولا خضوع لشهوة، ولا خوف من ذى طغيان.

٢- والعزة حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب، وهى إحساس يملأ القلب والنفس بالإباء والشموخ والاستعلاء والترفع، وهى نابعة من الخير، ومن ثم فإن صاحبها يحترم المثل العليا، ويقاوم الرذيلة، ويناصر الفضيلة، ويرجو الخير لكل الخلق.

٣- والعزة- بهذا المعنى- ليست تكبراً ولا تفاخراً، وليست بغياً أو عدواناً، وليست هضماً لحق أو ظلما لإنسان، وإنما هى الحفاظ على الكرامة والصيانة لما يجب أن يصان، ولذلك لا تتعارض العزة مع الرحمة، وفى القرآن الكريم ما يشير إلى هذا، حيث وُصِف ربنا بهما معاً فى أكثر من موضع بكتاب الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩).

٤- ولكى تتحقق للإنسان أو المجتمع هذه الصفة فلا سبيل إلى ذلك إلا بطاعة الله تعالى والسير على منهجه، والاعتزاز بدينه وشرعته.

لقد بين لنا ربنا تبارك وتعالى أن مفاتيح العز أو الذل إنما هى بيده وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦). ومن أسماء الله الحسنى العزيز والمعز والمذل، فهو سبحانه العزيز الذى لا يغلبه شىء، وهو المعز الذى يهب العزة لمن يشاء من عباده، وهو الذى يحرم منها من يشاء من خلقه فيكون ذليلاً مهيناً.

ومن دعاء النبى ﷺ: "... فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت".

٥- من أجل ذلك يؤكد ربنا فى أكثر من موضع فى كتابه على أن العزة إنما هى للمؤمنين، وأن الذلة إنما هى للكافرين والعاصين.

يقول رب العزة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ (فاطر: ١٠) أى من رام العز فليتصل بالعزيز تبارك وتعالى، فإن العزة بيده وحده.

حين قال عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨) وكان يقصد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ، ردَّ الله عليه قولته، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

ويقول ربنا فى حق المؤمنين: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

وفى المقابل وسم الله الكافرين والعاصين بالذل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِى الأَذَلِّينَ﴾ (المجادلة: ٢٠). وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ (يونس: ٢٧، ٢٨). وقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٤). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ (الحج: ١٨) . إلى غير ذلك من الآيات الكريمات.

٦- ويشير القرآن الكريم إلى أن هناك عزة كاذبة أو ضالة، وهى التى يتعزز فيها أصحابها بأسباب الدنيا الفانية من جاه أو مال أو سلطان أو غير ذلك.

يقول رب العزة: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩). وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ (مريم: ٨١). وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (البقرة: ٢٠٦).

٧- وتدل مواقف السلف الصالح وكلماتهم على هذه الحقيقة، ونشير هنا إلى بعض ما ورد عنهم فى هذا الشأن.

أ- خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الشام ومعه أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة، وعمر على ناقة له فنزل عنها، وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة، وحين قال له أبو عبيدة: ما يسرنى أن أهل البلد رأوك على هذه الحالة، أجابه قائلاً: "إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا

الله به أذلنا الله".

ب - ويقول الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فى حق أهل الدنيا من العصاة: "إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، ووطئت أعقابهم الرجال، فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه". وقال أيضاً: "أعِزَّ أمرَ الله حيثما كنت يعزك الله حيثما كنت".

جـ - ويقول الإمام الشافعى رضى الله عنه: "من لم تعزه التقوى فلا عزَّله". ومن أشعاره قوله:

اجعل بربك كل عزك يستقـــر ويثبـــت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

٧- إن تاريخ الإسلام حافل بآلاف الأمثلة على أناس اعتزوا بإسلامهم فرفع الله قدرهم، وأعلى مكانتهم، وخلَّد فى العالمين ذكرهم، ولنستمع إلى كلمات أحدهم، والتى تعبِّر عن هذا المعنى يقول الصحابى الجليل ربعى بن عامر وهو فى مجلس رستم قائد الفرس: "إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام... الخ".

٨- وعلى العكس من ذلك فإن الواقع يشهد بأن أناساً آخرين تعلقت قلوبهم بشهوات الدنيا، وطلبوا العزة فى غير طاعة الله، فأرغم الله أنوفهم، وعاشوا عبيداً لشهواتهم، ورحلوا عن الدنيا تلاحقهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

يقول أحد الحكماء: "من اعتز بماله قلَّ، ومن اعتز بحسبه ذلَّ، ومن اعتز بالناس ملَّ، ومن اعتز بعقله اختل، ومن اعتز بعلمه

ضل، ومن اعتز بالله لا قلَّ ولا ذلَّ ولا ملَّ ولا اختلَّ ولا ضلَّ".

ويقول الشاعر:

فما ضرَّ ذا التقوى نصال أسنة
وما زال ذو التقوى أعز وأكرما
ومازالت التقوى تريك على الفتى
إذا محّض التقوى من العز ميسماً

فاللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، وأعذنا اللهم من الذل إلا لك، ومن الخوف إلا منك.

الإصـــلاح والإفســـاد

١- خلق الله تعالى الأرض، وجعلها مهيأة ليعيش الناس على ظهرها آمنين مطمئنين، ووفر لهم فى سبيل ذلك أسباب الحياة المادية التى تَكْفُلُ لهم قضاء حوائجهم، ونيل مطالبهم.

يقول رب العزة: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٠). ويقول أيضاً: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: ١٩-٢١).

٢- ولما كانت حاجة البشر لا تقتصر على الحاجات المادية وحدها فإن الله سبحانه وتعالى- وهو الأعلم بخلقه وبما يصلحهم- قد وفر لعباده من المناهج ما يحقق لهم صلاح الدنيا والآخرة، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل لهم الكتب، ووعدهم- إن هم اتبعوا منهجه- بصلاح الدنيا والآخرة.

يقول رب العزة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ (طه: ١٢٣) قال الإمام ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية: "أى لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة".

٣- وقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى وهوالقائل عن نفسه ﴿وَاللَّهُ

يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنْ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة: ٢٢٠)، أن نحافظ على هذه الأرض ببقاء الصلاح فيها، وأن نمنع الفساد عنها، وتكرر ذلك فى القرآن أكثر من مرة.

قال تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥)، وقال: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود: ٨٥) وغير ذلك من الآيات.

وأبان عن أن الفساد فى الأرض إنما يكون بعصيان الله فيها، والسير وراء الأهواء.

يقول رب العزة: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وقال: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء: ١٥١-١٥٢).

وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١).

٤- وإزاء هذا المفهوم القرآنى لمعنى الفساد فى الأرض يسوق لنا القرآن الكريم أمثلة ونماذج لأناس خالفوا منهج الله فوصفهم بالفساد فى الأرض، ومن هذه الأمثلة ما يلى:

أ- يقول الله تعالى فى حق فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

ب- ويقول تعالى فى حق عاد وثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (الفجر: ٦-١٢).

جـ - ويقول فى شأن اليهود: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

د- ويقول فى شأن المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥).

٥- كما أن القرآن الكريم يربط فى آيات أخرى بين أعمال سيئة ومعاصٍ ظاهرة، ويصفها بالفساد فى الأرض، ومن ذلك:

أ- قول الله تعالى فى شأن قطيعة الرحم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: ٢٢).

ب- وقال فى شأن قطاع الطريق: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣).

جـ - وقال فى شأن من يخالفون أمر الله تعالى فى وجوب موالاة المؤمنين وعدم تولى غيرهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٣).

٦- ولئن كان القرآن الكريم حدثنا عن الفساد والمفسدين

مؤكداً أن السبب فى وصفهم بذلك هى معاصيهم لله تعالى، فإنه قد بين أن الطاعة لله تعالى، والالتزام بمنهجه هو الصلاح وأن القائمين بها هم المصلحون.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠)، وقال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

٧- ونستخلص مما سبق أن مقياس الإصلاح والإفساد مرده إلى مدى تنفيذ الفرد أو المجتمع لأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

وفى هذا السياق يرد الله تعالى على من يدّعون الإصلاح وإرادة الخير بمجتمعاتهم، وهم أبعد ما يكونون عنه، حيث رضوا لأنفسهم ما لم يرضه الله لهم.

يقول تعالى فى شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١١-١٢).

وذكر لنا ربنا أن فرعون الطاغية الذى ادّعى الألوهية كان يوهم قومه أنه لا يبغى لهم سوى الإصلاح، ويخشى عليهم من نبى الله موسى أن يأخذ بأيديهم إلى الفساد.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

(غافر: ٢٦).

وهذا أيضاً كان شأن أشياعه وحاشيته.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

٨- وما أشبه الليلة بالبارحة، فها هى الأرض تموج بمختلف الاتجاهات ما بين شيوعية إلى اشتراكية إلى علمانية، إلى ليبرالية، إلى تقدمية.. الخ، والتى تذهب يميناً مرة، ويساراً أخرى وإلى غير جهة ثالثة، وكل منها يدَّعى أنه داعية إصلاح، ومركب إنقاذ، ولو أسلم الفرد أو المجتمع نفسه لهؤلاء الأدعياء لأضاع نفسه وأضاع أمته، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١)، ولا سبيل إلى الخروج من هذا المازق إلا أن يعود الكل إلى منهج الله، فهو الكفيل وحده بتحقيق ما فيه الخير فى الدنيا والآخرة.

يقول رب العزة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ (النساء: ٢٦-٢٨).

ويقول تعالى فى حق المشركين: ﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١).

السعادة والشقاوة

١- السعادة كلمة تهفو إليها النفوس، وتتشوف إليها القلوب، وهى الأمنية التى يسعى الجميع إلى الحصول عليها، ومن أجلها تبذل الأرواح، وتُقدم التضحيات. وإلى هذا المعنى يشير الشيخ القرضاوى فى كتابه (الإيمان والحياة) بقوله: "السعادة هى جنة الأحلام التى ينشدها كل البشر؛ من الفيلسوف فى قمة تفكيره وتجريده، إلى العامى فى قاع سذاجته وبساطته، ومن الملك فى قصره المشيد إلى الصعلوك فى كوخه الصغير، ولا نحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه، أو يرضى بتعاستها".

٢- وقد حاول الناس الحصول على هذه السعادة بأسباب عدة، رأوا أنها تحقق لهم ما تطمئن به نفوسهم، وتهدأ به ثائرتهم، ويشعرون فى أعماقهم بالسعادة التى تغمر جوانحهم وجوانبهم، لكنهم عادوا من هذه الأسباب صفر اليدين، ولم تتحقق لهم السعادة التى ينشدونها.

أ- فمن هؤلاء من ظن السعادة فى كثرة الأموال، ورغيد العيش، ووفرة النعيم، لكننا نجد أناساً توافرت لديهم كل هذه الأسباب، ومع ذلك يشعرون بالتعاسة، وترتفع فى بلادهم نسبة الانتحار، وتنتشر بينهم الأمراض النفسية والعصبية، مما يؤكد فشل كثرة المرفهات ووفرة النعيم فى تحقيق السعادة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

ب- وطلبها آخرون فى كثرة الأولاد، ونسوا أن من هؤلاء الأولاد من يكون سبباً لشقاء آبائهم- على نحو ما أشارت إليه الآية السابقة- وكذلك ما يشهد به الواقع من تنكر بعض هؤلاء الأبناء لمعروف آبائهم، وربما حملوهم على معصية الله، وارتكاب ما نهى الله عنه، فينالهم بذلك الشقاء فى الدنيا والآخرة، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (التغابن: ١٤) ويقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (التغابن: ١٥).

جـ - وطلبها آخرون فى الاختراعات الحديثة، والابتكارات العلمية المتطورة، والتى أتاحت للبشر أن يستمتعوا بنعم الحياة ومتعها بصورة لم يسبق لها مثيل.

ولكن هذه الاختراعات- بشهادة أصحابها- لم تحقق لهم ما كانوا يأملون، بل ربما أغرت الإنسان بظلم أخيه الإنسان، وفَرْض هيمنة الدول القوية على الدول الضعيفة، واستنزاف خيراتها، وسلب ونهب ثرواتها.

يقول الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون: "لقد استطعنا أن نصعد فى تفوق عظيم إلى القمر، ولكننا نسقط فى خلاف حادّ على الأرض".

وقيل فى هذا المعنى أيضاً على لسان أحدهم: "قد نستطيع أن نطير فى الجو كالطيور، وأن نسبح تحت الماء كالأسماك، ولكننا لا نستطيع أن نعيش على الأرض كإنسان".

ونستخلص مما سبق أن هذه الأشياء المادية الخارجية لم تستطع أن تجلب السعادة لأحد، وأن السعادة شىء ينبع من داخل الإنسان ولا يُستَورَدُ من خارجه.

٣- ومن هنا نجد القرآن الكريم يحدثنا عن السعادة التى ينشدها كل إنسان بألفاظ متعددة، ويربطها جميعها بالإيمان بالله الواحد.

فتارة يعبر عنها بالحياة الطيبة فيقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

وتارة يعبر عنها بانشراح الصدر، فيقول: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

وتارة يعبر عنها بطمأنينة القلب، فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

وتارة يعبر عنها بالسكينة، فيقول: ﴿هوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤).

وتارة يعبر عنها بالأمن، فيقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢).

ثم يأتى اللفظ الصريح ليؤكد أن السعادة فى قمتها يوم يرضى الله تعالى عن عباده المومنين فيبوئهم الجنة، فيقول: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٨).

٤- ومن مجموع الآيات التى ذكرناها يتضح أن السعادة الحقيقية لا تكون إلا لأهل الإيمان بالله، فى حين يؤكد القرآن أن الشقاء والتعاسة تنال من قطعوا صلتهم بربهم، وأعرضوا عن منهجه.

يقول رب العزة: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه: ١٢٣-١٢٦) وقول الله تعالى فى الآية الأولى "فلا يضل ولا يشقى" فسر بأن المؤمن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. وتدل الآية الثانية بمفهومها على أن العاصى يشقى بمعصيته فى دنياه وأخراه.

ويقول الشاعر إبراهيم بديوى:

إنى أويت لكل مأوى فى الحيا
ة، فما رأيت أعز من مأواكا
وبحثت عن سر السعادة جاهداً
فوجدت هذا السر فى تقواكا
وتلمست نفسى السبيل إلى النجا
ة، فلم تجد منجى سوى منجاكا
فليرض عنى الناس أو فليسخطوا
أنا لم أعد أسعى لغير رضاكا

٥- ولئن كانت السعادة- كما اتضح لنا مما سبق- لا تتحصل بالأسباب المادية، فإن فشل الإنسان فى تحقيق كل ما يريده الإنسان لا يدل على الشقاء، فإن من الناس من نجزم بأنهم من السعداء لم يتحقق لهم كل ما يريدون فى الدنيا، فمن الأنبياء والدعاة والمصلحين من قُتِل ومن طُرِد ومن عاش فقيراً ومن مات دون أن يجد ثمرة عاجلة لدعوته، ومع هذا فهم أسعد الناس نفساً، وأشرحهم صدراً.

يقول الإمام ابن تيمية وهو فى سجنه: "ما يصنع أعدائى بى؟

أنا جنتى وبستانى فى صدرى، إن رحت راحت معى فهى لا تفارقنى. إن حبسى خلوة، ونفيى سياحة، وموتى شهادة فى سبيل الله" ويقول: "المحبوس من حُبِس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه".

٦- إن القرآن الكريم يذكر الأشقياء، ويبين أنهم الذين استحقوا بأعمالهم السيئة النار وبئس القرار، حيث يقول رب العزة: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (الأعلى: ١٠-١٢) ويقول: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى﴾ (الليل: ١٤-١٥). ويقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود: ١٠٦) فى حين ينفى الشقاوة عمن عاش على طاعة الله، فيقول على لسان نبى الله زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ (مريم: ٤) ويقول على لسان نبى الله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّى عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيّاً﴾ (مريم: ٤٨).

٧- إن الإنسان إذا لم يجد ربه- وهو أقرب إليه من حبل الوريد- فما أخيب سعيه، وما أتعس حظه، إنه الضائع حقا، الذى لن يجد للسكينة فى قلبه مكاناً، لأنهم كما قال ربنا ﴿نَسوا اللَّهَ فَنَسِيهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧) وصدق ابن عطاء الله حين قال: "إلهى ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك، من وجدك وجد كل شىء، ومن فقدك فقد كل شىء"..

المتعـــة والحـرمـــان

١- تدلنا آيات القرآن الكريم على أن الله تعالى أراد أن يخلق آدم وذريته ليعيشوا فى الأرض، ويقوموا بتعميرها. وفى هذا يقول ربنا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). ويقول فى موضع آخر: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

٢- وتحقيقاً لهذا الاستخلاف، وإعانة للإنسان على أن يعيش فى تلك الأرض عزيزاً كريماً؛ سخر الله له جميع الإمكانات فى السماء والأرض، والبحار والأنهار وغير ذلك من المخلوقات.

يقول رب العزة: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٢، ٣٤).

وقال فى موضع آخر: ﴿اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٢ - ١٣). والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

٣- وقد أكد القرآن الكريم فى أكثر من موضع على أن هذه النعم سخرت للخلق ليتمتعوا بها، وتتيسر أحوالهم بسببها،

وفى هذا يقول ربنا: ﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: ٢٤-٣١).

وفى سياق آخر يؤكد ربنا على إباحة التمتع بهذه الطيبات، وأنه لا يحق لأحد أن يحرم منها أحدا من البشر فى هذه الدنيا، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

٤- ولئن كان التمتع بطيبات الحياة الدنيا والتلذذ بنعيمها شيئاً أباحه الله لعباده ولم يحرمهم منها، فإن هذه المتع الدنيوية تشوبها الأكدار والمنغصات، وتتحمل النفوس فى سبيلها المتاعب والآلام، بحيث لا تصفو لأحد صفاء كاملاً، وصدق من قال:

عش موسراً إن شئت أو معسراً
لابد فى الدنيا من الهمّ
وكلما زادك من رزقه
زادك ما زادك من غمّ

ويقول آخر وهو يصف الدنيا:

طبعت على كدر وأنت تريدها
صفواً من الآلام والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

يضاف إلى هذا أن نعم الدنيا وطيباتها إن اكتسبت من حلال

حوسب على مصدرها الإنسان، وإن اكتسبها من حرام ناله الشقاء والضنك فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة، وصدق من قال:

تفنى اللذائذ ممن نال صفوتها
من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء فى مغبتها
لا خير فى لذة من بعدها النار

ويشير القرآن الكريم- أيضاً- إلى أن متع الدنيا ولذائذها مهما كثرت فإنها إلى زوال، وسيراها الإنسان يوم لقاء الله كأنها سحابة صيف انقشعت، وفى هذا يقول رب العزة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥) وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧) هذا ما سيحدث يوم تنجلى الحقائق وتبلى السرائر، يوم يعرض الناس على رب العالمين لا تخفى منهم خافية، فإذا نعم الدنيا وطيباتها لا تغنى عن أصحابها نقيراً ولا قطميراً، وفى هذا يقول رب العزة على لسان المقصر فى حق ربه ﴿مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٨ - ٢٩).

وهناك ملحظ آخر أشار إليه القرآن الكريم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: ٣٢) ففى ذلك إشارة إلى أن التمتع بهذه الطيبات وتلكم الملذات ليست خصوصية للإنسان، بل يشاركه أيضاً فيها الحيوان.

٥- ومن خلال الملاحظات التى ذكرناها بشأن التمتع بطيبات الحياة الدنيا وملذاتها يتضح لنا مدى الضلال والجرم الذى

يرتكبه الإنسان فى حق نفسه حين يعكف على تلك الملذات، ويجعلها غاية مقصوده ومحور اهتمامه، وينسى فى خضم هذا أعظم متعة، وأسمى لذة، ألا وهى لذة الروح، حين تتعلق بربها، وتحيا فى رضوانه.

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله- فى كتابه "الفوائد": "أكثر الخلق إنما يسعون فى حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها، واللذة الحقيقية ليست إلا فى معرفة الله تعالى ومحبته وسلوك طريقه، وألم النفس وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك، ومتى عدم اتصال النفس بخالقها وخلت منه لم يبق للمرء حينئذ إلا القوى البدنية والنفسانية التى بها يأكل ويشرب ويبكى ويغضب، وينال سائر لذاته ومرافق حياته، ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة، بل خساسة ومنقصة، لأنه بهذه القوى يماثل البهائم، ويدخل فى جملتها، ويصير كأحدها، وربما زادت فى تناولها عليه، واختصت دونه بسلامة عاقبتها، والأمن من جلب الضرر عليها. فكمالٌ تشارك فيه البهائم وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة، حقيق أن تهجره إلى الكمال الحقيقى الذى لا كمال سواه، وليس ذلك إلا بمعرفة الله ودوام محبته وسلوك السبيل الموصلة إليه" أ.هـ (بتصرف).

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد: ١٢).

٦- ولئن كانت للطاعة مشقتها، وضرورة بذل الجهد لأجلها، فإن الإنسان إذا وضع العاقبة أمام عينيه هانت عليه المشقات، واستعذب الإنسان فى سبيل الطاعة كل الصعوبات، وفى هذا

يقول الإمام ابن الجوزى: "إذا لاح فجر الأجر هان ظلام التكليف". ويقول الشيخ على الطنطاوى: "فكرت فيما كنت أكابد من ألم الطاعة فإذا الألم قد ذهب وبقى الثواب، ونظرت فيما استمتعت به من لذة المعصية فإذا اللذة قد ذهبت وبقى الحساب، فندمت على كل لحظة لم أجعلها فى طاعة".

٧- وقد أشار القرآن الكريم إلى أن التكاليف الشرعية ثقيلة على النفس، لكنها عند أهل الصدق والعزم واليقين تتحول إلى سياحة روحية ومتعة وجدانية، فتزول مشقتها، وفى ذلك يقول رب العزة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥).

وقد عبر عن هذا المعنى أحد السلف فقال: "سقت نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى، فمازلت أسوقها حتى انساقت وهى تضحك".

وأشارت السنة كذلك إلى أن للإيمان طعماً يُتذوق، وحلاوة يجدها المؤمنون الصادقون.

ففى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ذاق طعمَ الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً".

وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار".

●●●

وفيما يلى نتعرف على بعض أقوال وأحوال سلف الأمة الصالح الذين شعروا بهذه اللذة، وعبرت أقوالهم عنها:

أ- يقول أبو سليمان الدارانى- رحمه الله-: "إن أهل الليل فى ليلهم (أى فى صلاتهم بالليل وذكرهم ودعائهم) ألذ من أهل اللهو فى لهوهم، وإنه لتأتى على القلب أوقات يرقص فيها طرباً من ذكر الله، فأقول: لو أن أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب.

ب- ويقول أحد السلف: "لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من اللذة لجالدونا عليها بالسيوف".

جـ - ويقول آخر: "مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وماذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله ومعرفته وذكره".

د - وقال آخر: إنى لأفرح بالليل حين يقبل لما يلتذ به عيشى، وتقر به عينى من مناجاة من أحب، وخلوتى بخدمته، والتذلل بين يديه، وأغتم للفجر إذا طلع حيث يقطع علىَّ هذه اللذة.

هـ - ونختم هذه الأمثلة بمناجاة أحد المحبين لربه، وهى تفيض جلالاً وجمالاً، وتجسِّد المتعة التى نتحدث عنها.

يقول رضى الله عنه:

أروح وقد ختمت على فؤادى
بحبك أن يحلَّ به سواكا
فلو أنى استطعت غضضت طرفى
فلم أنظر به حتى أراكا
أحبك لا ببعضى بل بكلى
وإن لم يُبق حبك لى حراكا

إذا اشـــتـــبكت دمـــوع فى خـــدود

تــبـين مـن بـكـى ممـن تـبـــــــاكى

فـــأمـــا من بكى فـــيـــذوب وجـــداً

وينطق بالـهـــوى من قـــد تبـــاكى

٨- ونخلص من هذا إلى أن المتعة الحقيقية، واللذة الصادقة لا تكون إلا فى معية الله والقرب منه، وأن الإنسان إذا حرم منهما فهو المحروم، وإن توافرت لديه كل أسباب المتاع المادى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "المحروم حقيقة من حرم عبادة ربه ومولاه، والمأسور المحجوب أبداً من أسره هواه وحجبته خطاياه".

ويقول ابن عطاء الله السكندرى: "إلهى ما فقد من وجدك، وما وجد من فقدك، من وجدك وجد كل شىء، ومن فقدك فقد كل شىء".

فليحرص المسلم على طاعة خالقه، وليسخر ما ساقه الله إليه من نعم فى القرب منه، والمثول بين يديه، حتى لا تشغله النعمة عن المُنْعِم، فيكون مصيره كمصير من قال الله فيهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

الحـــريـــة والفـــوضـــى

١- من القيم العظيمة التى جاء الإسلام لترسيخها، والعمل على إشاعتها واستفادة الخلق جميعهم منها الحرية.

ومن أدلة القرآن الكريم الدالة على ذلك ما أوجبه الله تعالى فى كتابه من ضرورة الهجرة من الأماكن التى يستذل فيها المسلم ويحال فيها بينه وبين ممارسة طاعته لربه إلى أجواء من الحرية خالية من ظلم واضطهاد الآخرين.

يقول رب العزة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٩٧-٩٨).

جاء فى تفسير المنار: "لا يجوز لمسلم أن يقيم فى بلد يكون فيه ذليلاً مضطهداً فى حريته الدينية والشخصية، فكل مسلم يكون فى مكان يفتن فيه عن دينه أو يكون ممنوعاً من إقامته فيه كما يعتقد؛ يجب عليه أن يهاجر عنه إلى حيث يكون حراً فى تصرفه وإقامة دينه، وإلا كانت إقامته معصية يترتب عليها ما لا يحصى من المعاصى" أ.هـ.

وقد استثنت الآية من ذلك المستضعفين فقط ممن لا حيلة لهم كالمرضى والأطفال وأشباههم.

٢- ومما يدلل كذلك على اعتناء الإسلام بقيمة الحرية، وتوفير

الأجواء اللازمة لها؛ ما أوجبه الله تعالى على الفئة المؤمنة من القتال لأجل تحرير المستضعفين من أيدى المستبدين حيث يقول رب العزة: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء: ٧٥).

- كذلك ما قصه علينا ربنا فى كتابه فى قصة نبى الله موسى، وما كان من إذلال فرعون وقومه لبنى إسرائيل، فأرسل الله إليه هذا النبى الكريم ليخلص اليهود من يد فرعون الطاغية وجبروته المتسلط؛ كل ذلك يدلنا على مدى تقديس قيمة الحرية، وضرورة العمل لإرساء قواعدها، واستفادة الخلق كلهم منها.

٣- ومن المواقف الشهيرة التى تناقلتها الأجيال- ولا تزال- موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين اعتدى ابن عمرو بن العاص - والى مصر آنذاك- على أحد الأقباط المصريين بالضرب، فاقتص سيدنا عمر لهذا القبطى من ابن عمرو، وقال كلمته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

بهذا أعلى الإسلام من قيمة الحرية، وعاش الجميع فى ظلاله- مسلمين وغير مسلمين- ينعمون بالأمن والأمان، وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام بشكل غير مسبوق، حين وجد فيه غير المسلمين ما لم يجدوه فى معتقداتهم ومن أبناء جلدتهم.

٤- ولم تكن دعوة الإسلام إلى الحرية مجرد دعوة نظرية، بل شرع الإسلام جملة من المبادئ يتحقق من خلالها هذا المبدأ على أرض الواقع، ومن هذه المبادئ ما يلى:

أ- أعطى الإسلام للمرء حق الحرية فى العقيدة، وما تستلزمه تلك العقيدة من شعائر وعبادات، فلا إكراه فى الدين، وعلى كل إنسان- وفق تعاليم الإسلام- أن يبنى معتقده على أساس من الفكر السليم المجرد عن الخرافة والأساطير، والمنزه عن التقليد والمحاكاة للآباء والأجداد لمجرد التقليد.

والمنطلق الذى على أساسه أعطى الإسلام للإنسان حرية الاعتقاد دون إكراه، هو أن تغيير العقائد لا يمكن أن يأتى بالإكراه، كما أن العقيدة شىء يخص صاحبها لا يمنعه من الانسياق فى مجموع الناس، ويبقى بعد ذلك حسابه على الله، ومن ثم لا يُعد هذا إقراراً لأحد على باطل.

ب- كفل الإسلام للمرء حرية الفكر باعتباره أثمن المواهب الإنسانية، وهو وسيلة المرء لاكتساب العلم والمعرفة، وقد ورد فى القرآن الكريم العديد من الآيات التى تحث على التفكر والنظر، للوصول من وراء ذلك إلى معرفة الخالق والقيام بما يجب علينا من طاعته وعبادته، وبهذا حرر الإسلام العقول من الأوهام والخرافات والقيود المفروضة عليه من تقليد للآباء أو اتباع للأهواء.

جـ - إلى جانب حرية الفكر أعطى الإسلام للمرء حرية الرأى والتعبير إذا كان ذلك فى إطار من الأدب والالتزام بأخلاق الإسلام، وقد ضرب النبى ﷺ أروع الأمثلة فى هذا المجال، فكان لا يستأثر برأى حتى يقول لأصحابه- كما حدث فى غزوة بدر- "أشيروا علىَّ أيها الناس". وذكرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنه لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ، وكثيراً ما كان ينزل على رأيهم ﷺ. مثلما حدث فى الخروج

لملاقاة المشركين فى أحد، رغم أنه كان يرى غير ذلك.

د- كفل الإسلام كذلك حرية الكسب من حلال، وأباح للناس التمتع بطيبات الحياة الدنيا، وفى المقابل حرّم على الإنسان وسائل الكسب الحرام من سرقة ورشوة وغش واحتكار وربا.. الخ، فحافظ بذلك على أموال الغير من أن تمتد إليها يد من غير طيب نفس من صاحبها.

وثمة ألوان أخرى من الحريات كفلها الإسلام لكل الناس، وهى فى مجموعها ترقى بالإنسان إلى مستوى الكرامة الإنسانية، وتجعله كائناً مفضلاً على ما سواه من المخلوقات، وفيما ذكرناه من أمثلة كفاية، وعلى من أراد الزيادة أن يعود إلى المؤلفات التى فصّلت فى هذا.

٥- بقى أن نشير إلى أن الحرية لا تعنى الانطلاق بلا قيود، بحيث يعمل الإنسان ما شاء كيفما شاء وقتما يشاء، فإن الحياة لا يمكن أن تستقيم بمثل هذا، ولنتصور كيف تكون حال شوارعنا إذا سار كل إنسان وفق هواه، دون أن يلتزم بخط السير وقواعد المرور التى تحدد له أين يمشى ومتى يمشى... إن ذلك معناه الفوضي.

يقول الأستاذ الدكتور محمد المختار المهدى فى كتابه (حقوق الإنسان فى شريعة الإسلام): "إن الحرية لا تعنى أن يفعل الإنسان ما يشاء ويترك ما يريد، لكنها تعنى ألا يخضع لأحد سوى ربه، وألا يذل نفسه لمخلوق، وأن يرعى حرية الآخرين.. بل إن إيمان الإنسان بأنه مكلف هو أول خطوة من حريته، ذلك أن الحرية معنى اجتماعى لا يتصور وجوده إلا فى مجتمع يأخذ الأفراد منه ويعطون، وإذن لابد لها من قيود فى هذا المجتمع

حتى لا تتضارب الحريات، ولا تتصادم الرغبات وكل تقييد للحرية لابد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية ذاتها، وإلا كان عدواناً عليها، فتقييد حرية المنفلتين الذين لا يرعون حق المجتمع يكون المبرر له هو المحافظة على حرية المجتمع" أ.هـ.

٦- إن الكون كله من حولنا يمضى فى حركته وفق سنن وضعها له خالقه، وصدق الله إذ يقول: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠) والإنسان مخلوق من مخلوقات الله، جاء إلى هذه الدنيا بإرادة خالقه وحده، وسوف يعيش فيها مدة تطول أو تقصر وفق إرادة خالقه وحده، وسوف تنتهى حياته فى الموعد الذى يحدده خالقه وحده، فكيف يتصور الإنسان بعد هذا كله أنه مُطلَق الحرية" لا رقيب عليه ولا حسيب؟!

٧- لقد ظُلِمَت الحرية باسم الحرية فى كثير من المجتمعات المعاصرة، فانطلقت من إسارها، وتعالت أصوات تنادى بتغيير أحكام الله فى الزواج والطلاق وغيرهما، وأبيحت الشهوات المحرمة والعلاقات الشاذة تحت حراسة القانون، وكشفت المرأة عن جسدها وزينتها، واختلطت بالشباب فى النادى والدراسة وغيرهما، وانطلق الشباب يحكى مسخاً مشوهاً فى ملابسه وشعره، وهذا كله تمييع لكيان الإنسان المكرَّم عند الله، وتحويله إلى مجرد لاهث وراء الشهوات.

٨- إن الحرية تعنى أن تعيش فى وفاق مع الخالق سبحانه ومع منهجه ومع الناس من حولك، ولا تعنى مطلقاً التحلل من كل قيد، والتخلى عن أى التزام، فهذه هى الفوضى بعينها.

ومن هنا فإن الإنسان يحتاج إلى مقياس يحدد له الحق من

الباطل، والصواب من الخطأ، وإذا كان الإنسان يأبى أن يقيد حريته إنسان مثله، فلابد إذن من الاحتكام إلى شرع الله، الذى خلقنا وهو الأعلم بنا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، فمع شرع الله لا مجاملة لأحد على حساب آخر، ولا محاباة لطائفة على حساب غيرها، إذ الكل أمام الله تعالى سواسية.

فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

الحضـــارة والتخلـــف

١- لا يختلف اثنان فى أن العالم المعاصر يشهد طفرة غير مسبوقة فى مجال الاختراعات والابتكارات المادية والتى شملت جميع المجالات، وغطت جميع النشاطات.

وقد أسهمت هذه الاختراعات الحديثة فى اختصار الأوقات، وتقريب المسافات، وأصبحت المعلومات تُتَناقَل بالصوت والصورة فى حينها إلى كل بقعة من بقاع العالم، بحيث لم يعد العالم قرية صغيرة كما كان يقال، بل صارحجرة صغيرة تتوافر فيها كل أسباب الاتصال بين البشر على وجه هذه الأرض.

٢- وبالنظر فى هذه الاختراعات نجد أنها تعتمد على العقل والعلم والتجربة، وهذه الأمور كلها يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، فالحيوانات لا تبتكر ولا تخترع، وثمة فارق آخر وهو أن الحيوان تحركه شهوته، وتحكمه غريزته فى حين أن الإنسان يستخدم إرادته الضابطة فى تنظيم دوافعه الغريزية، ويوجهها بما يتناسب مع آدميته ويتفق مع إنسانيته.

٣- وللحكم على أى نشاط إنسانى استعمل الإنسان فيه عقله وفكره، ونتج عن ذلك اختراع وابتكار يحكم عليه بأنه متحضر أو متخلف، متقدم أو متاخر، ينبغى النظر إليه فى الفارق الثانى بين الإنسان والحيوان، وهو مدى ما يلتزم به الإنسان فى ظل هذا الاختراع والابتكار من أخلاق وقيم تسمو بإنسانيته وترقى بآدميته.

يقول الأستاذ محمد قطب فى كتابه (الإنسان بين المادية والإسلام): "إن المقياس الحقيقى لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الراديو أو التليفزيون الذى يملكه، ولا السيارة التى يركبها، ولا جهاز الغسيل الآلى، ولا القنبلة الذرية التى يدمر بها الحياة على وجه الأرض، وإنما هو أثر ذلك كله فى مشاعره وعواطفه وكيانه النفسى على وجه العموم، فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع، فقد ارتقى الإنسان حقاً بكل ذلك، أما إذا كان يضيق مشاعره فى نطاق الأنانية المرذولة، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة فقد انحطت البشرية رغم هذا البريق الذى يخطف الأبصار".

٤- وفى القرآن الكريم ما يؤكد على هذه الحقيقة.

يقول رب العزة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)، ويمتدح هؤلاء الصالحين بما يقومون به من أعمال إذا مكنهم الله فى الأرض، فيقول: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

فى حين يصف الله تبارك وتعالى من استحبوا العمى على الهدى وانساقوا وراء شهواتهم دون حدود أو قيود بأنهم أضل من الحيوانات، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ويقول عنهم أيضاً: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣).

٥- فإذا انتقلنا من الأدلة القرآنية إلى ما يدلل على هذه الحقيقة من الواقع فسنجد أن القرآن الكريم يذكّرنا بما حصّلته أمم سابقة من حضارة مادية بلغت شأواً بعيداً، وبسبب كفرهم وطغيانهم بادت حضارتهم وتحولت إلى خراب.

يقول رب العزة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ٦-١٤).

وقد تحدث القرآن الكريم عن تفصيلات كثيرة تتعلق بكل حضارة من هذه الحضارات، وما أنزله الله عليهم من بأس بسبب إعراضهم عن منهج الله، وإيثارهم لدنياهم على أخراهم ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

وأما الجانب المشرق فإنه يتمثل فى أمة الإسلام حين عمل أبناؤها على إحياء معانى الإسلام وقيمه فى نفوسهم ومجتمعاتهم فإذا بهم يمتلكون مشارق الأرض ومغاربها، وإذا بالأمبراطوريات تتهاوى تحت أقدامهم، ويعمُّ الخير جميع أرجاء المعمورة فى حين كانت أوروبا تعيش فى ظلام.

يقول الشاعر هاشم الرفاعى رحمه الله:

ملكنا هذه الدنيا قرونا
وأخضعها جدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء
فما نسى الزمان وما نسينا

٦- وقد تخلف المسلمون عن ركب التقدم، حين تخلوا عن منهج الله، فجرت عليهم سنة الله التى لا تجامل ولا تحابى أحداً، فسقطت دولتهم، وتفرقت كلمتهم، وصاروا تبعاً بعد أن كانوا رأساً.

٧- وقد تولى زمام الأمور من بعدهم- وإلى يومنا هذا- أناس غرقوا فى مستنقع المادية، وأعلوا من قيمة المتع والشهوات، وتوارت فى حياتهم القيم الروحية، ولم يعد فى حياتهم مكان لله.

يقول محمد أسد فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق): "إن الرجل العادى فى أوروبا- ديمقراطياً كان أو فاشياً، رأسمالياً كان أو اشتراكياً، عاملاً باليد أو رجلاً فكرياً- إنما يعرف ديناً واحداً، وهو عبادة الرقى المادى، والاعتقاد بأنه لا غاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل، وبالتعبير الدارج: "حرية مطلقة" من قيود الطبيعة.

ويضيف قائلاً: "إن الحضارة الغربية لا تجحد الله فى صراحة، ولكن ليس فى نظامها الفكرى موضع لله فى الحقيقة، ولا تعرف له فائدة، ولا تشعر بحاجة إليه".

٨- وقد ترتب على هذه النظرة المادية البحتة أن تضخمت الصناعات، وتعددت الاختراعات، فى الوقت الذى توارت فيه المعانى الإنسانية والقيم الرفيعة، فصارت هذه الحضارة وبالاً على الدنيا بأسرها.

يقول المفكر الإسلامى محمد إقبال: "لقد تضخم العلم، وتقدمت الصناعة فى أوروبا، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة".

"إن الأمة التى لا نصيب لها فى التوجيه السماوى والتنزيل الإلهى غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، إن المدنيّة التى تتحكم فيها الآلات، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب، ويُقتل فيها الحنان والوفاء والمعانى الإنسانية الكريمة.

وقد اعترف أقطاب هذه الحضارة أنفسهم بفشلها فى تحقيق السعادة المنشودة لبنى البشر، فيقول أحدهم: "لقد استطعنا أن نصل فى تفوق عظيم إلى القمر، ولكننا نسقط فى خلاف حاد على الأرض"، "قد نستطيع أن نطير فى الهواء كالطيور، وأن نسبح فى الماء كالأسماك، ولكننا لا نستطيع أن نعيش على الأرض كإنسان".

٩- إن حضارة بهذا الوصف لن تقوى على البقاء طويلاً، وهو ما تنبأ به المراقبون منذ أمد بعيد.

يقول محمد إقبال: "إنها حضارة شابة بحداثة سنها، والحيوية الكامنة فيها، ولكنها محتضرة تعانى سكرات الموت وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة فى ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار".

وقد حدث ماتنبأ به المراقبون فسقط الجناح الشيوعى لتلك الحضارة، وبدأت معالم السقوط للجناح الرأسمالى بظهور الكارثة المالية الأمريكية وتداعياتها وآثارها، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧).

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد: ١٠).

وقد قلت فى هذا منذ ما يزيد عن خمسة عشر عاماً:

وتوقعوا للكفر شر نهاية
فالله موهن كيدهم بفناء
ونهاية السوفييت كانت عبرة
وغداً ترون مصارع الحلفاء
فالأرض أرض الله جل جلاله
ومآلها بالإرث للصلحاء

١٠- بقى أن نشير إلى أن حضارة الإسلام وحدها هى الكفيلة بإسعاد البشر بما تتضمنه من تعاليم تجمع بين الدنيا والآخرة، وتلبى مطالب الجسد وأشواق الروح، وتدعو إلى الفضيلة وتنهى عن الرذيلة،... الخ.

وهو ما يحمّل المسلمين أمانة الدعوة إلى هذا الدين، وتبليغه إلى العالمين، فى وقت هم أحوج ما يكونون إليه، وأسعد ما يكونون به.

النجـــاح والإخفـــاق

١- النجاح والفوز أمنية يتمناها كل إنسان فيما يقوم به من عمل، ويسعده ذلك ويدخل عليه الفرح والسرور، فى حين أن الإخفاق والفشل يصيبه بالضيق ويجلب له الحزن.

ولا يُستثنى من هذه القاعدة أحد من البشر، فالحاكم فى سلطانه، والكيميائى فى معمله، والطبيب فى عيادته، والطالب فى دراسته، والتاجر فى بضاعته، والفلاح فى زراعته، والصانع فى مصنعه، هؤلاء جميعاً وغيرهم يتمنون السبق فى مجالاتهم، وتحقيق ما تصبوا إليه آمالهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (الروم: ٣٦).

٢- وتقوم دعوة الإسلام على أساس تقدير الأعمال الناجحة، وتزكية القائمين بها، والتشجيع المستمر على الإبداع والتفوق فيها، وليس أدل على ذلك مما رصده الإسلام من ثواب وأجر على كل عمل يبتغى به صاحبه وجه مولاه عز وجل، وفيما يلى بعض الأدلة على هذا.

أ- فى الدلالة على فضل الزارعة والغرس؛ أورد الإمام أحمد فى مسنده حديثاً جاء فيه: "من غرس غرساً أو زرع زرعاً فأكل منه إنسان أو سبع أو دابة أو طير فهو له صدقة".

ب- وفى الدلالة على فضل التجارة- إذا التزم صاحبها الصدق

والأمانة- أورد الإمام الترمذى حديثاً حسنه جاء فيه: "التاجر الصدوق الأمين، مع النبيين والصديقين والشهداء".

جـ - وفى الدلالة على فضيلة العمل عامة جاء فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده".

وأخرج ابن عساكر حديثاً صححه السيوطى فى الجامع الصغير جاء فيه: "من بات كالاً من طلب الحلال، بات مغفوراً له".

٣- وإذا كان النجاح فى الدنيا أمنية يتمناها كل إنسان، ويشجعه عليها الإسلام- كما سبق وأن بينا- فإن هذا النجاح ماله إلى الزوال بزوال الدنيا، وهو موقوت بعمرها القصير، ومدتها المحدودة.

ولذا فإن القرآن الكريم يوجهنا إلى ضرورة استثمار دنيانا بما فيها من عناصر النجاح لما هو أبقى وأنفع، فلا تكون الدنيا غايتنا، ولا النجاح فيها منتهى أملنا، بل نجعلها مزرعة للآخرة، وطريقاً إلى مرضاة ربنا، وبذا نسعد فى دنيانا، ونفوز فى آخرتنا.

يقول رب العزة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ (القصص: ٧٧).

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

ومن دعاء النبى ﷺ الذى أخرجه الترمذى وحسنه: "اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، اللهم وما ذويت عنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب".

٤- وبهذا المفهوم الواسع فى الاستعانة بأمور الدنيا على الآخرة لا تكون الدنيا مذمومة، ولا تُعد شراً يستعاذ بالله منه، وهذا ما نطق به سلفنا الصاح وبينوه.

يقول الإمام على رضى الله عنه: "إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودارعافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها. مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحى الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة... الخ".

ويقول التابعى الجليل سعيد بن جبير- رضى الله عنه-: "الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، أمّا إذا دعتك إلى طلب رضوان الله فنعم المتاع ونعم الوسيلة.

٥- ومن هنا فإن الذين قصروا همّهم على هذه الدنيا، وتعلقت قلوبهم بها، وأضاعوا- فى مقابل ذلك- آخرتهم، فلم يؤمنوا بها ولم يقدموا لها شيئاً، يصفهم القرآن الكريم بالفشل والإخفاق والخسران المبين، وإن كانوا أشهر المبتكرين أو أعظم السياسيين أو أكبر المشهورين فى أى مجال من مجالات الدنيا.

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٥) وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٥).

وقال عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥)

والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

٦- وفى مقابل هؤلاء الذين حكم عليهم القرآن الكريم بالخسران؛ يذكّرنا ربنا بأهل الإيمان به، هؤلاء الذين زرعوا فى دنياهم لأخراهم، وقدّموا فى حاضرهم من أعمال الخير لصالح مستقبلهم، فيبين القرآن أن هؤلاء هم أهل النجاح الحقيقى.

يقول رب العزة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (التوبة: ٢٠).

ويقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١).

ويقول سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

والآيات فى هذا المعنى كثيرة أيضاً:

٧- إننا مطالبون أن نتأمل فى عاقبة الأشياء لنحكم عليها بأنها نجاح أو إخفاق، وأن نقيس الأشياء بنتائجها البعيدة وليست القريبة.

فما فائدة أن يحصل الإنسان على أرفع الأوسمة وأعلى الشهادات، ويمنح من الجوائز والتقديرات ما يحلم به كل إنسان ثم يؤول أمره فى النهاية إلى النار وبئس القرار؟

وما فائدة الملك العريض، والمال الوفير، والجاه والسلطان بكل أشكاله وألوانه إذا جاء صاحبه يوم القيامة وهو يقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٨-٢٩).

٨- إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ (محمد: ١٢).

ورسولنا ﷺ يقول فى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ فى النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يارب. ما مرَّ بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط" وفى هذا المعنى أيضاً ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: "لا خير فى خير بعده النار، ولا شر فى شر بعده الجنة".

وبهذا يضعنا ربنا عز وجل ورسوله ﷺ على حقيقة النجاح والإخفاق، فمن عمل صالحاً فى دنياه، وثقلت موازينه فى أخراه فهو الفائز حقاً والناجح صدقاً، أما من اتبع هواه، وعصى مولاه، وخفت موازينه فى أخراه فهو الخاسر حقاً، الهالك حتماً، ولن ينفعه حينئذ ما عاش به مشهوراً فى ماضيه ودنياه.

الخـاتمـة

هذا آخر ما يسره الله لى من موضوعات تتعلق بالنعم فى صورتها المادية وحقيقتها المعنوية، وهى قطرة من بحر القرآن الكريم، الذى لا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الرد.

ولا أدَّعى أننى استوعبت كافة الجوانب، ولكنها خطوة على الطريق، تتلوها خطوات أخرى بمشيئة الله تبارك وتعالى، فإن وُفّقت وسُدِّدتُ فبفضل الله تعالى وحده، وأسأله تبارك وتعالى القبول، وإن أخطأت فأسأله سبحانه أن يغفر زلتى ويقيل عثرتى، كما أسأله تعالى أن يجزى عنى والدىَّ وأساتذتى وأصحاب الحقوق علىَّ خير ما يجزى به عباده الصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

أ.د. طلعت محمد عفيفى سالم

فهرس الموضوعات

المقدمـــة ٤
الحياة والموت ٧
النور والظلمة ١٢
الربح والخسارة ١٧
الهداية والضلال ٢٢
الصحة والمرض ٢٧
العقل والجنون ٣٣
البصر والعمى ٣٨
السمع والصمم ٤٣
الكلام والبكم ٤٧
العلم والجهل ٥٢
اللباس والعرى ٥٧
الغنى والفقر ٦٣
الطهارة والنجاسة ٧٠
الجمال والقبح ٧٥
القوة والضعف ٨١
العزة والذلة ٨٧
الإصلاح والإفساد ٩٢
السعادة والشقاوة ٩٧
المتعة والحرمان ١٠٢
الحرية والفوضى ١٠٩
الحضارة والتخلف ١١٥
النجاح والإخفاق ١٢١
الخاتمـــــة ١٢٦

هذا الكتاب

ما أسعد الأمة المسلمة حين تعود بنفسها إلى كتاب ربها، تهتدى به فى الظلمات، وترتقى به فى الدرجات، فهو المنهاج السديد، والدستور المجيد.

يقول رب العزة :- ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾

وفى محاولة لاستجلاء معانى القرآن الكريم فيما يتعلق بالنعم فى صورتها المادية وحقيقتها المعنوية جاءت هذه الدراسة، التى استهدفت ألا تشغلنا النعمة عن المنعم، وألا تتعلق القلوب بالقشور، وتغفل عن اللباب.

فاللهم انفعنا بالقرآن العظيم، واجعله حجة لنا لا علينا

إنك يامولانا ولى ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

مكتبة الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
٤ شارع أحمد شوكان فرع الجيزة ت ٣٣٠٢٠٢٥٣٣٢٤ فاكس ٣٣٠٤٤٨٤١